شذرة العِقدْ

عباس مدحت البياتي

رواية

شذرة العِقدْ

رواية

المؤلف: عباس مدحت البياتي

إهداء

إلى التاريخ ولكل الذين ساهموا وبصموا بتلك الواقعة العظيمة، الخالدة، والتي خلدت الذوات البطلة الذين شرفوا سجل الشرف، فمنهم من أستشهد وقضى نحبه، ومنهم من عاش وأدرك نهاية الحرب، ومنهم من فُقِدْ، ومنهم من حمل شقاء واقعته في أسفار حياته كعوق مستديم يجله.. لكل هؤلاء ولمن عاش فترة الحرب وللتاريخ ولقارئ الرواية، أسجل لمحة من تلك الواقعة التاريخية لتبقى كتاريخ وشذرة لامعة في سلسلة العقِدْ تطوق جيد الوطن، لترتدي الأجيال القادمة العِقدْ جيلا بعد جيل بعز وشرف. لكل هؤلاء أهدي روايتي وبالذات لمن زُهِقت أرواحهم الزكية الطاهرة في أرض المعركة.

المقدمة:

في عالم تتقاطع فيه الفكرة مع الشعور، وتتمازج فيه الفلسفة مع الشعر، يطل علينا عباس مدحت البياتي بروايته "شذرة العقد" كأنها مرآة لذاته، ونافذة تطل على تأملاته العميقة في الحياة، الحب، الفقد، والوجود. ليست هذه الرواية مجرد سرد لأحداث، بل هي رحلة فكرية وروحية، تتنقل بين محطات الذات والآخر، بين صمت الروح وصخب العالم. بأسلوبه الذي يجمع بين السلاسة والعمق، ينسج البياتي نصًا يلامس القارئ في وجدانه، ويحفزه على التأمل في المعاني المخبأة خلف الكل

د نبيل صباح

الفصل الاول

1- تأجيل الإجازة

للمرة الثانية، تأجلت إجازتي التي كنت أعدّ لها الأيام كمن ينقب في الرمل عن الصدف. القرار جاء على يد الملازم الأول عدنان، قائد الرعيل الأول في وحدة الهواوين الثقيلة 120 ملم، الذي اكتفى حين سألته عن السبب قائلا:....

- انتظر... هناك أوامر تحرك وشيكة.

كانت نبرته كمن يقرأ من نص مقدس، يحرّم علينا الاعتراض. وفي ملامح وجهه تقرأ علامات شك وغموض تخفي في جوهرها هموم روتين لا يريد أن ينتهي.

لاحقًا، أخبرني نائب الضابط ضاحي بأن الإجازات قد أُوقفت حتى إشعار آخر، دون أن يوضح الأسباب. ولعله كان على علمٍ بالسر، لكنه امتنع عن الإفصاح عنه احترامًا لسرّية الأمر.. وكم تمنيت لو أن الإشعار محدد بزمن، ليكون لي بصيص يقين أرى فيه غدي. لكنه في المعسكر تكون الأبواب والسماء مغلقة كي لا نشعر بطارق يشد الفكر ولا بنجم يُرهِفَ القلب، وكي لا تسيح مياه الفوضى بين المراتب.

لكني علمت بعد أيام أن القرار ليس وليد لحظة، بل كان مأخوذًا من عمق القيادة في مقر الفيلق الثالث شرق البصرة، حيث تُصاغ الأوامر بلغة لا تقبل الجدل، وترسل كموجة لا تُقاوم. تلك الإشارة طافت جميع الوحدات كما لو كانت نداءً من

القيادة العليا تحث على الحيطة والحذر. التحرك بات محتملاً، وأن العدو يلوّح بالمباغتة في قاطع العمارة.

كنت قد استوفيت شروط الإجازة بعد أن قضيت أكثر من أربعة أسابيع من المواظبة والانغماس في الجبهة، بينما الضباط يقضون ثلاثة أسابيع لاستحقاقها. الإجازة هي ليست استراحة من لغط المعارك فحسب، فترة سكون تمنح المقاتل سكينة من سماع أزيز الرصاص اليومي ونذر الهلاك، حيث تهجس بالموت يمرّ بين السواتر كعابر سبيل وهو مغشي بسكون لا يحتمل طرق أبواب الخنادق، قد ينفلق من صرة الهدوء بلحظة غفلة.

ونحن في خضم المناقشة قال لي زميلي علي:..

- اين ذاهب؟ أيرضيك تتركني وحيدا؟ صدقني اني قد تعودت عليك واحببتك، إذا ما ذهبت ستأكلني الوحشة..
- هههههه، وأنا أن بقيت معك فترة أخرى ستأكلني الجرذان، الوسخ تشمع على الملابس والجسد.
- والله انا اكون سعيدا بوجودك معي، لكن الحرب لها رأي.
- وانا اشتياقي لأمي وأبي فاض في قلبي، اشعر بأني افتقدتهم دهرا وليس شهرا..
- ربي يعينك على الصبر.

الأمر المشاع كان واضحًا كصفارة الإنذار: إيقاف الإجازات لجميع صفوف الرتب والضباط، لا استثناء، لا تهاون. القرار

شمل جبهتي البصرة والعمارة، ضمن الفيلق الثالث والرابع. الزمن أصبح مُعلّقًا بشعرة، بومضة خفية تحرق شمعة الفوضى، إشعار قد لا يجيء إلا والاحتمالات تحطمت على ساعة الانتظار.

كانت الوشوشة الدائرة بين المراتب مستطيرة في الخنادق وفي الشارع والمقهى، راجت إشاعات عن رؤى شعبية لا تعرف مصدرها إن كانت من جهة القيادة أو من قبل الطابور الخامس، مفادها أن إيران تخطط لهجوم مباغت على الفيلق الرابع، جاء ذلك عبر التقارير التي عدت من قبل الجهات المختصة التي تطابقت مع تلك الرؤى، والتي تثبت رؤية الطمع القديم المغروزة في أذهان العدو بحلم استعادة إمبراطورية الفرس على حساب العرب. تلك التي تتأمل بامتدادٍ تطوي به أراضينا....

المخاوف كانت قد استشرت بين الألسن كلهيب لا تصدّه ريح الإنكار، استشعرت الرجل البسيط والمسؤول، مما جعل القيادة إلى رص المواجهة بالحزم وبقوة الارادة والإعداد.

كانت قد اندلعت شرارة الحرب في 22 أيلول 1980، بعد سلسلة اعتداءات جعلت المدن الحدودية تصحو على دويّ القنابل لا على تغريد الطيور. دون سابق إنذار كان القصف قد نال مدن خانقين ومندلي وزرباطية ...الخ، بينما الطائرات الإيرانية اخترقت أجواءنا وكأنها ساحة تدريب، رغم تقديم العراق مذكرات احتجاج رسمية للأمم المتحدة، إلا أن إيران

كانت قد تجاهلتها وأقلعت عن تلك المناشدات، حيث استمرت في استفزازها، مدفوعةً بنظرتها المتعالية على العراق، وتهميشها لحقوقه المشروعة. كمن يختبر صبر السيادة العراقية قبل الرد المستحق الذي ارعبها.

كانت الاستخبارات العسكرية ترسم بخيوط الخفاء خريطة الجبهة، وتنسج من تفاصيل العقد ما يشبه العيون التي لا تنام، وهي تتبع تحركات العدو على طول الجبهة التي تمتد لأكثر من سبعمئة كيلومتر. تقارير وتحاليل طابور خامس وفرق تجسس والعلاقات الدولية وأجهزة التصنت، كل هذه الأدوات كانت بمثابة شموع تضيء دروب القيادة لاتخاذ القرار المناسب قبل أن تكسر الجرة...

وبفضل تلك المنظومة، قرأت القيادة النوايا الإيرانية كما تُقرأ جريدة الصباح، اتخذت قرارًا صارمًا بوقف الإجازات مع تشديد الانتباه. كلّنا بقينا حيث نحن مع التزامٍ كاملٍ بالواجبات والمراقبة، بانتظار ما لا تقرأه سوى التوقعات المحتملة، بها نراقب الجبهة كما يراقب الطير الأفق.

تتكامل هذه القدرات التقنية مع الكفاءات الذهنية والتحليلية لعناصر القيادة، ما يمنحها قدرة على اختراق منظومات العدو وكشف نواياه الخبيثة، وقراءة استعداداته ومدى قدرته على الثبات والمواجهة. لذا عدت نفسها تحسباً لأي اختراق أو طارئ قد يُخلّ بالتوازن العسكري.

ومـع اشـتداد تلـك الهـواجس، صـدرت الأوامـر بتحـرك وحـدتنا - بطاريــة هاونــات عيــار 120 ملـم - مــن جبهــة الــدير–الزريجــي التابعــة للفيلــق الثالــث شــرق البصــرة، إلــى جبهــة الطيــب شــرق العمـــارة، حيـــث ينتظرنـــا واقـــعٌ مختلـــف، أكثـــر تعقيـــدًا، تكـــون الجغرافيا فيه لاعبًا شرسًا، لا يقلّ خطرًا عن العدو.

كـان الانتقـال نقطـة تحـول؛ مـن أرض مألوفـة بسـيطة إلـى أخـرى تفـرض نمطًـا جديـدًا مـن التفكيـر والتهيئـة والتعقيـد. لـم نعـد نواجـه العـدو وحـده، بـل كـان علينـا التـأقلم مـع الأرض حتـى نلـين مـع خشــونتها لتؤازرنــا وقــت المنازلــة.. إذا كــان علينــا مواجهــة الأرض بقسوتها وصمتها وطعناتها الملتوية.

فـي خضـم تلـك الأنبـاء المتـواترة، تـردد صـدى التحـذير بـأن العـدو قـد شـرع فـي حشـد قواتـه علـى جبهـة قـاطع الطيـب. فكـان لزامًـا علــى وحــدتنا أن تتحــرك صــوب تلــك الجبهــة الملتهبــة بوقــت قياسـي، وأن تنخـرط فـي صـفوف أحـد أفـواج لـواء المشـاة الرابـع عشر.

وفــي خضــم هــذه الاســتعدادات، انصــبّ التركيــز علــى احتماليــة تحشّـد العـدو أمـام قـاطع الفيلـق الرابـع فـي منطقـة العمـارة، وبشـكل خـاص علـى جبهـة "الطيـب". ورغـم انتشـار تلـك الإشـاعة، إلا أن الحقيقــة التــي غابــت عــن أذهــان بعــض القــادة العســكريين والميـدانيين تشـير إلـى أن تلـك الجبهـة لا تصـلح لتكـون ميـداناً مثاليــاً للعمليــات العســكرية بالنســبة للعــدو. إذ أن تضــاريس المنطقـة المعقـدة والـوعرة تخـدم العـراق، وتعيـق تقـدم المـدرعات

والمعدات الثقيلة القادمة من الجانب الإيراني، ما يجعل أي محاولة اختراق عبرها مجازفة خاسر.

تشكّل التضاريس الوعرة في هذه المنطقة حاجزاً طبيعياً يُعيق تحركات العدو، ويُحوّل أي تقدم محتمل إلى فريسة سهلة للقوات العراقية المرابطة. ومع ذلك، يبدو أن قادة الوحدات، خصوصاً أفواج جبهة الطيب، لم يُولوا هذه الحقيقة ما يكفي من اهتمام، أو ربما انخدعوا بها. ولعل الغاية من التقارير التي رفعوها كانت في المقام الأول تفادي تكرار المآسي التي شهدتها المعارك نهر الكارون قبل عامين. التي اولت خسائر جسيمة في الجيش.

لم تكن تلك الاحتياطات العسكرية مجرد خطوات عابرة، بل جاءت محملة بهواجس المحاسبة، تترنح تحت وطأة القسوة التي مارستها القيادة ضد من أخطأ بحيث نال الإعدام عدد كبير من قادة الجيش، تلك التي تحوّلت إلى درسٍ دامغٍ حفر أثره في أعماق كل من خَبِر مرارة الخطأ. لقد أضحت التجربة السابقة كابوسًا يؤرق القادة، يدفعهم إلى الحذرٍ المفرط، خشية السقوط في فخاخ التخوين، تلك التي أطاحت بمن كانوا من أكفأ الضباط، أولئك الذين دفعوا ثمناً باهظًا لتقديراتٍ خانت زملائهم وسط فوضى عارمة لا يد لهم فيها.

أتحدث عن نفسي، عن مكانٍ لم يكن فيه التنبؤ خيارًا، بل ضرورة؛ من خندقٍ غائرٍ في عمق الجبهة، حيث تماهت الروح بالتراب، وعانقت العين أدق تفاصيل الجبهة. لقد عشتُ

كراصد للحدث بكل ما فيه من عقد، تعرّفت إلى طبائع الأرض التي تحيط بقاطع جبهة الطيب، حيث المرتفعات الحادّة التي تشبه الشفرات، والممرات الصخرية الضيقة والوديان العميقة وهي تُضيق حتى على الأنفاس، وتكاد تخنق أي اختراقٍ يُفكر فيه العقل العسكري.

الإشاعات لشدتها كانت لا تتقاطع مع التقارير الاستخباراتية والعسكرية والخارجية، وكأنها ترسم ملامح زحف مرتقب، لا يفصل بينه وبين الواقع سوى أيام لا تعد. في ذات الوقت، راحت الشوارع العراقية تعج بنبوءات لا تهدأ، تناقلتها الألسن كما تنقل الريح رائحة المطر قبيل هطوله.

فطول الصراع وتوالي الحروب جعل من الإنسان البسيط خبيرًا لا يُضاهى؛ يقرأ الممحي بين السطور، ويجيد تفكيك الأحداث والالغاز بدقة، وكأن السياسة أصبحت خبزه اليومي. لكثرة ما استهلك من موجات الاخبار، ومن فرط ما سبّح في لجج التحليل والتأويل، بات يملك فطنة وفراسة وأداة نقدية تضاهي أو تتفوق على أصحاب الاختصاص أنفسهم، صار أشبه بالإسفنجة الماصة، يخزن في داخله قروء الأحداث لكثرة ما تناول وثرد من أخبار وغاص في معمعة السياسة خلال مراحل حياته.

كان قد تربى منذ نعومته على السياسة، تشرب الأحداث من المناهج المدرسية التي كانت تمطره بالشعارات الوطنية، ومن وقفة نشيد الصباح أمام سارية العلم، ومن الأغاني الثورية التي

كانت تتدفق كنهر من التلفاز والراديو لتصب في ذهن الطفل والشاب بلا كلل وحواجز، لتنبتُ في وجدانه جذرًا من الوطنية لا يُقتلع. إضافة إلى تلك الأهازيج التي ترسخت في كيانه وطبيعته كعراقي، كأنها تعاويذ تحفظ الولاء من التجريح والتخون. وبين هذيان الصحف وجلبة البرامج التلفزيونية المتكررة، نشأ جيل يرى نفسه موثقًا للأحداث، وناقدًا لها، وصانعًا لروايتها بمهارة فاقت توقعات الجميع.

فهكذا، أصبح الطفل، والشاب، والعجوز، يقلب أخبار اليوم كما لو أنه يحرر تقريرًا استخباراتيًا، يستخلص منه الزبد، ويكشف المستور، ويعيد بناء الخبر بنكهةٍ شعبيةٍ مغلفةٍ بفطنة التاريخ وتجربة الدم. بات يتقافز العراقي دون إرادة بين موجات الإعلام كغريقٍ يبحث عن شطٍ من اليَقين يجذبه. صار الروتين جزء من حياته كالشروق والغروب، كل صباحٍ يبدأ بعلس خبر ساخن أو تصريحٍ يابس، وفي المساءِ يختَتم يومه بمضغ جدلٍ ما يتسلل مع مجريات الحياة إلى الوسادة فيُوقظ في ذاكرته الأحلام والكوابيس التي لا تتردد أن تتكرر.

صار الفرد ابن السياسة وإن لم يكتب مقالا فيها، بل نسج التحليل من خيوط التكرار، وأمتلك من الفطنة ما يفوق أعتى المحللين. أما الجرائد والمجلات، فهي مسرحٌ تتنقل عليه الوجوه، وتُعرض فيه مأساة المشاريع المهجورة، والمصانع التي هرب منها الحلم، بينما بقي هؤلاء المساكين من العمال يدورون حول أنفسهم الذين ذبلت أرواحهم وهم يتصفحون سطور الخيبات.

فـي ركـنٍ آخـر، تسـكن الاشـاعات والـدعايات منافـذ الحيـاة مثـل نـدف الغبـار، لا يُراهـا أحـد لكنهـا تمـلأ الجـو، وتـزرع فـي الـنفس ريبـةً تتكـاثر. يخـتلط صـوت الحـق بصـوت الباطـل، وتضـيع الحقيقـة فـي زحـام العنـاوين والرايـات. وهكـذا، غـدا الفـردُ العراقـي يحمـل وطنـاً مُـثقلاً بالتأويـل، يعـيش بـين صـرخات النشـرات وعـواء الجبهـات، ويبحـث بـين سـطور الألـم عـن ومضـة ضـوء تجيزه عبور الحياة دون عناء.

السياسـة لـم تعـد حـدثاً عاديـا ينتهـي بنهايـة اليـوم، بـل أضـحت مـع الأيـام لتكرارهـا كخميـرة تفـور فـي رغيـف الحيـاة. ومـا عـادت الرغبـات تشـتهي الحلـم، حيـث يُنسـى الفـرد المسـتقبل المـأمول أمـام التجاذبـات المتداخلـة ومناجـاة الـنفس، فـي ظـل تـدوير المعانـاة كل يوم.

كـان الخـوف قـد تكـور فـي قلـوب القـادة الميـدانيين لـيس وليـد اللحظـة، بـل إرثًـا نفسـيًا تجمـع وتسـلل إلـيهم مـع شراسـةً الموقـف وبالتـدريج مـع علـو الرتـب، عقـدٌ الثبـات والنصـر تكـاد لا تحـل بالمجادلـة، بـل بالتسـليم لأمـر الواقـع دون نقـاش. حينهـا، قـررت القيـادة العسـكرية العليـا بإصـدار أوامـر إلـى آمـري الوحـدات بضـرورة وقـف الإجـازات الدوريـة لكـل صـنوف الجـيش، وكأنهـا أنـذرت بقـرب هبـوب عاصـفة همجيـة مـن جهـة الشـرق، لا تُعـرف ملامحها بعد، لكنها مُرجحة الحدوث في فترة وجيزة.

كانـت القسـوة التـي انتهجتهـا القيـادة العليـا بمواجهـة الإخفاقـات صـارمة، لا تعـرف اللـين فـي مواقـف حـادّة وظـروف عصـيبة. أمـا

الأوامر الصادرة عن قيادة الفيلق الرابع، فجاءت متماهية مع تقارير الاستخبارات العسكرية، في محاولةً تجنّب أخطاء الماضي بكل ثقلها. لكن الخوف المتجذّر في نفوس قادة الأفواج والألوية شلّ الرؤية الصحيحة، وغدا الحكم على الواقع بعيدًا عن الدقة الواجبة في الميدان ومكنونات طبوغرافيا جبهة الطيب التي تشير إلى عدم إمكانية اختراق العدو للمكان في حال حصلت فيها الاشتباكات.

في أعقاب نكسة معركة نهر الكارون شرق البصرة، باتت القيادة تأخذ التقديرات العسكرية على محمل بالغ الجدية. فقد كشفت تلك المواجهة حجم الخلل الذي نتج عن سوء التقدير لدى بعض القادة الميدانيين، حين دفعت تقديراتهم الخاطئة الجيش إلى خسارة ربع قوته الحقيقية. إذ عبرت تشكيلات بحجم ألوية وفرق كاملة، تمكنت من فك لغز جبهة واسعة، فأسرت العديد من الجنود وسيطرت على مساحة شاسعة، حيث كانت تمسك تلك الارض قوات احتياط وسرايا لوجستية لا شأن لها بالقتال إضافة لفصائل من الجيش الشعبي (المدني)، مما أدى إلى انهيارات وانسحابات متتابعة نحو الحدود الدولية بشكل سريع وغير متوقع. بذلك توغلت خلف خطوطنا حيث تمكنت من فصل القوات المتقدمة عن عمقها الاستراتيجي، مما أدخلها في حالة من التخبط انتهت بأسر الوية وأفواج كاملة منها أو أبيدت في اشتباكات شرسة.

لم تكن هناك خيانة بمعنى الكلمة للخيانة، أنما سوء تقدير كلف الجيش خسائر الفادحة. ومع ذلك، رأت القيادة العليا أن

المحاسبة لا مفر منها، فأحالت الكثير من القادة الميدانيين إلى المحاكم العسكرية بتهمة الخيانة، فأُعدم من أُعدم، وأُعفي من أُعفي، دون أن ينال بعضهم حقهم في الإنصاف.

من جانبها، كانت القيادة ترى أن الخطأ العسكري مهما بدا صغيرًا، يُعد كارثيًا على مستوى الوطن كله. فالهفوة قد تتحول إلى صاعقة تهز أركان الدولة وتشل قدرتها على الصمود، ولهذا جاء الرد صارمًا، بل جائرًا في نظر البعض وتلك هي الحقيقة. لقد أعدم جنرالات برتب عالية كلفت الدولة عقودا في تأهيلها.

انعكس هذا الواقع المرير على سلوك القادة الميدانيين لاحقًا، فغلب عليهم الخوف والتحفظ، وصاروا يرفعون تقارير تبالغ بين الدقة والتضخيم، تجنبًا لأية مساءلة قد تطيح بهم. ورغم إخلاص الجميع وجهودهم الجبارة، فإن تلك الغصة ظلت عالقة في أذهان الجميع مما أثرت جديا على دقة التقارير المرفوعة من ناحية وأولدت صفة إيجابية بتوخي الحذر طوال الفترة الباقية من الحرب.. تلك الخسائر في صفوف القادة والمراتب أثّرت بعمق على قدرة الجيش القتالية حتى نهاية الحرب. إذ لم تتمكن القيادة من تعويض ما فقدته من آليات وجنود وضباط، لا سيما أولئك الذين أُعدموا وهم من نخبة خريجي كلية الأركان، الذين أفنوا أعمارهم في الدراسة والتخطيط العسكري حتى بلغوا ذروة المسؤولية والقيادة.

قبل الهجوم الايراني، بينما كنا نترقب ساعة الصفر بحذرٍ عميق في قاطع الطيب، كانت الألوية قد تلقت تكليفًا بالتحرش بقوات العدو أمامنا، لبثّ الرهبة في صفوفهم وزعزعة ثقتهم، ولإيصال رسالة غير معلنة مفادها أننا على علمٍ بما يُحشد من قوات خلف خطوطهم. وبعد استطلاعٍ مكثف دام ثلاثة أيام، جرى تحديد هدف بالغ الأهمية: مرصد متقدم على خشمٍ صخري يُشكل عينًا للقوات المعادية ضمن حجاباتهم الأمامية.

انطلقت مجموعة صغيرة من الضباط والجنود، من المشاة والمدفعية، في هجوم ليليٍ جريء على المرصد، بهدف السيطرة عليه وأسر عناصره. كانت النوايا تكتيكية: معرفة حجم القوات المعادية المتجحفلة، وكشف نواياها الدفينة. أسفر الهجوم عن مقتل ثلاثة جنودٍ من العدو، وأسر ثلاثة آخرين، أحدهم من عربستان، يتحدث العربية بطلاقة، مما سهّل استخلاص بعض المعلومات الاستخبارية المهمة.

لكن المهمة لم تُكلل بالسيطرة على الموقع، إذ اضطرت القوة إلى الانسحاب بعد ساعتين فقط، بسبب وعورة الطريق، ورصد النقطة من قبل العدو، ما جعلها هدفًا سهلًا للمدفعية المعادية. لذا، حُوّلت العملية من "احتلال هدف" إلى "غارة ناجحة"، وإن كان هذا التحوير غير كافٍ لتجنيب آمر اللواء التوبيخ، فقد جرى استدعاؤه إلى بغداد وتم إعفاؤه من منصبه.

لكن الجيش استعاد زمامه بعد تلك النكسة، فثبّت قواته في نقاط استراتيجية، وبدأ صد الهجمات المعادية بفعالية، خاصة بعد أن

نهض الحرس الجمهوري من رماده، توسّعت تشكيلاته من فوج إلى لواء وفرقة، ثم إلى فيلق، ليتحمّل عبء الهجمات المعاكسة ويصبح القوة الضاربة، بمساندة الفرقة المدرعة العاشرة.

في خضمّ الصراع الدائر، امتدّ خط النار من أقصى شمال العراق إلى شطآن الخليج، كانت الجبهة أشبه بوتر مشدودٍ يعزفُ سمفونية الحذر والرجاء. لم تكن الحرب فقط في هدير المدافع، بل في نبض الشعب وفي رجاء الامهات وفي ملامح الاطفال وفي العيون التي تترقب الاحداث، وفي النفوس التي تؤمن بالقدر.

الدعاية أو الإشاعة ليست نزوة تدهن بها صور الإيحاء للمعركة، ولا هي مجرد كلماتٍ تطلق في الهواء، بل كانت سلاحًا فتاكًا، يعبّئ النفوس ويشحذ العزائم والهمم، يسري في مجرى الأرواح كما يسري النغم في الوتر، يلهب قلوب الجنود ويحملهم على الصبر والمثابرة، بينما يتسلل إلى عقول العدو كضبابٍ خادع يطمس الرؤية ويفكك اليقين.

كان قد أعلن الجيش حالة الإنذار (ج) وهو أقسى درجات الحذر في لحظة ترقب لا تمل الانتظار، كأنما انتفضت الأرض ودقت اسافين الوجل في عقولنا لتنبهنا بأن نأخذ حذرنا، فالخطر يتربص بنا، والنصر لن يأتينا بالتغافل قط. كانت تلك الزكائب التي يحملها الرجال ليست حِملًا ماديًا

فحسب، بل أمانة الأطفال والنساء والوطن، وإذا أفلتت، فلت معها لجام القدر.

هكذا يصير للصراع معنى يتجاوز الخنادق والسواتر، ليغدو اختبارًا لقوة الإيمان، وتجلّياً لما تبثه العزيمة في وجه الطغيان.

علما مكونات الجيش كالاتي:.....

1- حظيرة يترأسها رقيب (عريف) إلى مساعد رقيب، قسم مشاة صغير\ تتكون من عشرة جنود

2- الفصيل يترأسه ملازم ثاني إلى نقيب \ يتكون من 3+5 حظائر من 30 إلى 50 جندي

3- السرية يترأسها نقيب إلى رائد\ تتكون من 2 إلى 8 فصائل من 80 إلى 250

4- الكتيبة يترأسها رائد إلى عقيد \تتكون من 2 إلى 6 سرايا من 300 إلى 1,300 جندي

5- الفوج يترأسه مقدم إلى عميد \ يتكون من 2- 3 كتيبة من 1,000 إلى 3,000 جندي

6- اللواء يترأسه عقيد إلى عميد \ من 3 - 6 كتائب من 3,000 إلى 5,000 جندي

7- فرقة يترأسه عميد أو لواء \ من 2 إلى 4 ألوية من 10,000 إلى 30,000 جندي

8- فيلـق يترأســه لـواء أو فريـق \مـن 2+ فـرق مـن 40,000 إلى 80,000 جندي

9- الجــيش يترأســه فريــق أو فريــق أول مــن 2 - 4 فيــالق مــن 100,000 إلى 250,000 جندي

2- الإشاعة

منذ أكثر من أسبوعين، تشنّجت الأوضاع على الحدود، وتواترت الأنباء عن حشودٍ جديدة للعدو على قاطع الطيب. استشعرت القيادة خطرًا يداهم الجبهة، فأوعزت بتحرك عاجل لوحدات من الفرق والألوية من الشمال والوسط نحو الجنوب، ومن أقصى الجنوب إلى قاطع العمارة. كانت حركة غير اعتيادية، تنبئ بحجم التهديد، وتكشف عن يقظة القيادة وحرصها، وعن استنفار الضباط والجنود الذين أدركوا أن الموقف على شفير الانفجار.

في خضم تلك الفوضى، تبلورت نوايا العدو، واتضحت ملامحها على جبهة الطيب. لم تكن مجرد مناورة عسكرية، بل خطة مدروسة، تخفي وراءها أطماعًا دفينة وأهدافًا غير معلنة. فالجنوب، بتربته الغنية، يحتضن خزين الدولة من النفط والغاز والمعادن، ويضم ميناءي الفاو وأم قصر، شرياني العراق إلى الخليج العربي، ومنه إلى العالم بأسره. أراد العدو أن يقطع هذا الشريان ليخنق بغداد اقتصاديًا، ويجبرها على الركوع.

خصوصية الجنوب العراقي لا تكمن فقط في ثرواته، بل في موقعه الاستراتيجي، حيث يشكل العمق العربي للعراق، وعصب ديمومة الحرب. فجنوب العراق ممتد حتى مياه الخليج، هو مستنقع الذهب الأسود، وواجهة العراق إلى العالم الخارجي.

منذ اندلاع الحرب لم يخفِ العدو نواياه. سعى لاحتلال الجنوب وعزله عن الوسط والشمال، ليشلّ قدرات الدولة، ويستولي على منابع النفط والموانئ الحيوية. لو تحقق له ذلك، لعزل العراق عن العالم، ولحرمه من بوابته البحرية الوحيدة، ولأصاب اقتصاده في شلل.

لكن كلما حاول وجد نفسه في مأزق، اصطدم بجدار من نار. وجد قوة رادعة تفوقه قوة، لا تعرف التراجع، تحمّلهُ خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، وتعيدهُ إلى نقطة البداية دون أن يعود لرشده.

في خضم التحولات الجيوسياسية التي عصفت بالمنطقة، رأت إيران في إسقاط نظام صدام حسين فرصة سانحة لبسط نفوذها على العراق، ومن ثم التمدد نحو دول الخليج المتضعضعة سياسيًا واجتماعيًا. بدا النظام الإيراني في عهد الخميني، يتصور نفسه أخطبوطا يمكنه أن تمتد أذرعه في أرجاء الشرق الأوسط، واضعًا العراق كأولى خطوات مشروع تصدير الثورة، مستندًا إلى وجود أتباع له من الموالين لنظرية ولاية الفقيه.

هذا التصور كان يؤرق القيادة العراقية، التي قرأت في تحركات إيران تهديدًا وجوديًا لها، فسعت إلى تحذير دول الخليج من البعبع الإيراني، مستعطفة مواقفها، ومطالبة بدعمها المستمر في مواجهة هذا الخطر الداهم.

لكن الحقيقة التي غفلت عنها الأنظار، أن العدو لم يكن على الحدود فحسب، بل كان متغلغلًا في الداخل، عبر خلايا نائمة وطابور خامس من الموالين لولاية الفقيه، ومن ذوي الأصول الإيرانية، ومن الأحزاب المعارضة المدعومة من طهران، كحزب الدعوة والفضيلة، فضلًا عن الأحزاب الكردية كالديمقراطي والبارتي، والشيوعيين الذين اجتمعوا على مبدأ عدائهم لحزب البعث الحاكم. هذا التوافق بين القوى المعارضة يذكرنا بتحالف الخونة مع الكيشيين لإسقاط دولة نبوخذنصر، وكأن التاريخ يعيد نفسه في مشهد جديد من صراع الجبابرة.

وبحكم الواقع، أصبحت المعارضة سلة العدو داخل العراق، تحمل في طياتها غيضًا وكراهية واضحة للنظام البعثي، حتى بلغ ببعضها العداء حد خيانة الوطن من أجل التخلص من قبضة البعث على السلطة التي أحكمت سيطرتها لعقود.

لكن لا يمكن إغفال أن النظام نفسه هو من زرع بذور القطيعة والعداء في مجال السياسة، وذلك بتفرده بالحكم وحمل عصا التأنيب لكل من ينحرف عن خطه، النظام من فرض قيودًا صارمة على خصومه، بمحاربتهم وعزلهم عن الشعب عبر قاعدة الحزب الواحد، الرئيس الذي جعل من نفسه فرعونا على الشعب وكأنه لم يقرأ القرآن. دون أن يفسح مجالا لأي شكل من أشكال الديمقراطية، حتى الجبهة الوطنية التي دعا لها في السبعينيات؛ كان الغرض منها كشف الرؤوس المختفية تحت عباءة المعارضين، ما أن سطعت كنجوم السماء؛ حتى أفلها بكسوف أبدي، سرعان ما أوأد الجبهة التي دعا لها بعد أن

شخص قادتها ورؤسائها، وعلى رأسهم قادة الحزب الشيوعي الذين كان لهم حضور شعبي واضح آن ذاك. وكأنّ بين البعث والشيوعيين ثأرٍ قديمٍ يعود إلى عهد عبدالكريم قاسم، حين فضّل الشيوعيين على حساب البعثيين، فترك في جسد البعث جراحًا لن تندمل، وأعادها التاريخ في صورة صراع لا يهدأ.

وهكذا، بات الطابور الخامس ينسج الأخبار بخيوط من دخان، لا تُرى إلا حين تسطع شمس الشك في ساحات الناس. يتسلل بين الجدران، يهمس في آذان المصلين، ويضحك في زوايا المقاهي، يختبئ خلف عباءات الأئمة، وتحت طاولات القمار، وفي عيون البغايا، وعلى مكاتب الأمن والاستخبارات. لا وجه له، لكنه حاضر في كل مكان، يروي الحكايات كما يشتهيها من يدفع أكثر، سواء كانت تلك الحكايات تمجّد الدولة، أو تلعنها في السر.

في الأيام الأخيرة، تواترت الأنباء كأنها نبوءات تُتلى على لسان العائدين من إجازاتهم، عن حشودٍ غريبة تتكاثر على قاطع الطيب من الفيلق الرابع. لم تكن الأخبار مؤكدة، لكنها كانت كافية لتُشعل فتيل القلق في القلوب، وتُربك الحسابات في غرف القيادة، وتُلهب الخيال في رؤوس الجنود. في الأسواق كانت تُروى الحكايات عن القادم وكأنها قصص بطولات فيها فزع، وفي المساجد كانت تروى كأنها تحذيرات من السماء، وعلى أرصفة المتسكعين عدت كأنها نكات سوداء تبكي بدلا من أن تضحك.

لكـن مـن أيـن جـاءت تلـك النبـوءات ؟ مـن أي فـم خرجـت أول التـأويلات؟ لا أحـد يعـرف. هـل هـي تسـريبات مدروسـة مـن اسـتخباراتنا تُرسـل كرسـائل مشـفرة إلـى العـدو، عبـر عملائـه المندسـين تحـت ثـوب الوطنيـة؟ أم أنهـا جرعـة معنويـة تُحقـن فـي عـروق الجنـود، كـي لا ينـاموا علـى وسـادة الغفلـة، ويظلـوا متيقظين خلف السواتر؟

أم أن العـدو نفسـه هـو مـن أطلقهـا، عبـر طـابوره الخـامس، ليُشـتت أنظـار القيـادة، ويُغفـل نظرهـا عـن القواطـع التـي ينـوي اقتحامهـا؟ لعبـة خـداع، تُمـارس علـى رقعـة الـوطن، حيـث كـل خطـوة قـد تكون فخًا، وكل صمت قد يكون صراخًا.

وربمـا، فـي سـيناريو أكثـر تعقيـدًا، ليسـت تلـك الإشـاعات إلا خيوطًـا تحركهـا أصـابع القـوى العظمـى، التـي تبغـي تـرويج السـلاح، تُشـعل الحـروب، وتُراقـب مـن فـوق، عبـر أقمارهـا الصـناعية التـي تحـوم كطيـور جارحـة فـوق رؤوسـنا، تلـتقط الصور، وتُحصي الأنفاس، وتُدوّن كل ارتعاشة في الميدان.

الغايـة؟ لا أحد يعرفهـا. ربمـا هـي وهـمٌ يُبـاع علـى أنـه يقين، وربمـا هـي يقـينٌ يُخفـى تحـت عبـاءة الظـن. تعضـدها حسـابات القيـادة التـي لا تُفصـح عـن الحقيقـة، بـل تكتفـي بالإيمـاء، وتنتظـر اللحظـة التـي تتفجـر فيهـا دمامـل الحقـد، لتثـور بـراكين الغضـب فـي قـاطع مـا، حتـى تُكشـف عـن وجههـا، لتبدأ الجولـة الجديـدة مـن لعبـة الفـن والدهاء.

تسللت الأنباء بين الأفواه كما يتسلل المطر بين أوراق الشجر، تحمل وعدًا لا يُدركه اليقين. حديثٌ عن حشودٍ تلوح كأطياف في الأفق، ربما تعبر عن حقيقةً تسربت من مكامن الظلام، أو مجرد سرابٍ يرسمه الترقب والظن. ولكن القيادة لا تُخلي جبهة ما إلا عن بصيرة أو خشية عمياء، لا تتحرك قوافلها عبثًا، ولا تهدأ خطاها إلا إذا تيقنت من نوايا الرياح المقبلة تكون خطيرة وجادة في قاطع ما.

في رقعة الحرب، لا تُرسم التحركات إلا كأطيافٍ من تمويهٍ متعمد، كأنّ القيادة تنسج الجدل بخيوط الشك لتبقي المقاتل في يقظةٍ دائمة، كمن يصلي في محرابٍ لا يعرف فيه اليقين. لا يغمض له جفن، ولا يسهو له قلب. وربما هي نبوءةٌ خرجت من رحم استخباراتٍ عراقية، يلفها الترقب وتغشاها الريبة، لكنها كافية لتغذية الخوف وإشعال فتيل الاستعداد.

أما الحذر، فهو صوت الأرض حين تهمس للسلام، فهو يغرز القلق كوشمٍ في ذهن المقاتل ليتيقن من الأفق. لكن الأفق لا ينبئ إلا باشتباكٍ وشيك، فالحشود لا تتكاثر إلا لتفرج عن صرخةً مدوية مخنوقة في السواتر المحشية بالمقاتلين، تصعد إلى السماء دون رجعة.

الحقيقة تتوارى خلف عقدةٍ يصعب فكّ خيوطها، والجميع في فلك يدورون، الجميع في حالة ترقبٍ، يشربون من ذات الكأس، الصمت قابع على الافواه دون أن يجل ذلك الانتظارٌ

الثقيلٌ عن العيون المجهدة، الفرقعةٍ الآتية قد تكتب الفصول بنارٍ الغل، إنها الحرب... لا تعرف الرحمة.

قد يكون الخبر تسريبًا مقصودًا، أو قرصنةً صحفية، أو إهمالًا من مختصين في أجهزة الأمن والاستخبارات العراقية، لكن قوة الإشاعة تؤكد أن شيئًا ما يُدبّر في الخفاء. فثمة حشدٌ إيراني كبير على الجبهة المقابلة لجبهة العمارة، وتحديدًا في قاطع الطيب. وإن كذب المنجمون، فالجبهة لا تكذب؛ فهدوؤها الطاغي، والغبار المتصاعد من حركة الآليات الثقيلة تشهد على دلائل لا تُخطئها العين.

هذه الأخبار أضحت تسيطر على أفكار وعقول الناس تتناقلها الألسن كفيض يقين لا يُقاوم، تحمل في طياتها مآسي ودمارًا، لا يحتملها قلبٌ ولا عقل. وما يُخشى منه أن يُصبّ هذا الغل في بوتقة الوطن، وعلى عاتق المساكين من الشعبين وعلى القوة المهاجمة، أولئك الذين لا ناقة لهم ولا جمل. تلك العجينة البريئة والتي لا حول لها ولا قوة، تتأمل انقشاع الغمة عن هذه الأمة التي ابتليت بعنجهية وجور حكامها، في الوقت الذي به جل أبنائها متراصة على قواطع الجبهات دون أسباب جوهرية حقيقية سوى حقد اسود يغشي قلوب القادة

حتى لاعب النرد والدومينو صار محللًا سياسيًا، ينقل الأخبار ويؤثر في محيطه أكثر من الإذاعة والتلفاز، لتمركزه في وسط الدعاية والإشاعة. فقد اعتدنا أن تروج الإشاعة بيننا، فلا دخان

فـي الأفـق إلا ولـه نـار، والمجـال خصـبٌ لتصـديقها وبثهـا علـى نطاقٍ واسع لتكرار التجارب.

مـن أراد الحقيقـة، فلـيجلس فـي أي مقهـى سـاعةً مـن الـزمن، ليغـرف مـن الأنبـاء مـا يشـتهي، فمـن خـلال تواجـد الفـرد فـي هـذه الأمـاكن يسـتطيع أن يسـتطلع أحـوال البلـد والنـاس بأسـرها، يسـتطيع أن يقـرر إلـى أيـن تسـير المراكـب بنـا وبـالأمور المعلقـة، كمـا يمكنـه الشـخص تحديـد شـكل المصـير القـادم، ومـا سيحصـل هنـا أو هنـاك بيسـر ودون تكلـف، ربمـا مـراودي النـوادي الليلـة هم أكثر خبرة من الضباط المتراصين على خطوط الجبهة.

الحقيقة لا تخفى عن أحد...

فـي ردهـات السـلطة، تختبـئ أشـباح الجمـال المزيـف، تتـزيّن بالوعـد وتتبختـر بـين العقـول المرهقـة، تـزرع القلـق وتُقطّـف الخـوف بأيـدٍ ناعمـةٍ لا تُـرى. فالحقيقـة تغـدو مـرآةً تتغيّـر ملامحهـا بحسـب حـرارة الأيـدي التـي تُمسـكها. تهجـس بالحقيقـة عـاهرة، تسـكن بـروح السـلطة وتعمـل فـي أزقـة المسـاكين، الكـل يبحـث عنهـا سـواء للمتعـة أو للسمسـرة كمـا تسـتغلها أجهـزة الأمـن التـي ترتكـز فـي دلالاتهـا علـى جمـع اسـتطلاعاتها وبـث أخبارهـا الخبيثـة مـن خلالهـا، لرصـد أعـداء السـلطة مـن الخونـة ممـن تبتـذل ذواتهم وتخور أمام عزف روح الجنس اللطيف.

لـذا تجـد لهـا قيمـة باهظـة فـي الشـارع، مقابـل إفـلاس حقيقـي فـي داخـل الـنفس وفـي البيـت، إفـلاس فـي داخـل عرشـها وذاتهـا الخاويـة، تهجـس بهـا كورقـة عبئـت بـ الشـخابيط، فـلا مجـال مـن

الكتابة عليها. فهي تتجلّى كأنثى مُفترضة وفقًا لموج السياسة. تهمس للعارفين وتصرخ في وجه الحالمين، تُمسك بالحقيقة بأطراف أناملها، ثم تمضغها وتبصقها بشكل إشاعات ودعاياتٍ رخوة، تتغلغل في المجالس والمقاهي. أنها تتكلم بصوت عال وبقوة الجدار الذي تستند عليه، فهي متأكدة من أنها تقف على أرض صلبة، بينما داخلها ممزق، يرق لشدة العفة والحرية..

لذا باتت العامة من الناس تحسب لها ألف حساب، وقد تتوسط عندها لتتجنب المصائب، ربما تتجنب الاحتكاك بها خوفا من أن تَلفُ حبل العواقب على المحتبك بها، فهي انثى، رقيقة، لها طباع لينة لا تمت للواقع بصلة، تميل إلى القوي وتتبع الحدث وتتفوه بحسب أوامر حازمة تسيرها.. تُغني من يصطف خلفها، وتُفلس من يُجاهر برفضها. إنها مرآة سائلة، تعكس ما ترغب فيه السلطة، لا ما يراه الناس. بذلك تفرض وجودها في عالم الخشونة والعبث بلطف تكوينها وباستلطاف المارقين بعالمها على مأدبة الفحش..

الغاية في داخلها غايتين، غاية أثبات الوجود لذاتها المهزوزة أمام الناس، وغاية مؤتمرة بها تخص تحري السلطة دون أن تستطيع تجريد ذاتها من المهمة... لذا تتصرف حسب لون جلدها، وظرفها كأفعى...

على أية حال أصبحت العاهرة لها مكانة في ظل الأنظمة السليطة، بدلا عن محاربة الفساد بأشكاله وخبث مساراته بالاعتماد على الدين والتقوى وبناء الفرد فكريا وعلميا. اتجهت

تلك الانظمة إلى استغلال العاهرة لتكون لها عين على المجتمع.

في كثير من الأحيان، تجد أن ابن الشارع يدرك الحقيقة أكثر من أهل الاختصاص في الجبهة. فبعض التفاصيل التي تتردد بين الناس تبدو للوهلة الأولى مجرد شائعات، لكن سرعان ما تنقلب إلى واقع ملموس، فتؤكد صحة الادعاء وتمنحه ختم الحقيقة. هكذا يبدو المشهد للمواطن العادي الذي يراقب بهدوء وتعقل، بعيدًا عن الانزلاق وراء الانفعالات أو التوجهات المضللة.

وهكذا أيضًا تبدو الصورة لمن يتأمل الأحداث من بعيد، فيفهم الغاية ويستوعب الهدف. أما "شلة العهر"، فبسبب تماسهم المباشر مع المسؤولين وأصحاب النفوذ، وكذلك علاقتهم بأبناء الشارع، فهم أشبه بحلقة وصل بين السلطة والناس. لديهم دراية واسعة في مجالات الائتمان والكتمان، والسرية والفضائح، يجيدون التخاطر في قلب الأحداث وصنع القرار.

وقد يُسرب إليهم الخبر عمدًا أو دون علمهم، بهدف إنقاذ الشارع من مأزق، أو ربما لاستغلال الفوضى والصيد في المياه العكرة. فهم ليسوا مجرد شهود، بل أدوات فاعلة في رسم ملامح الواقع، وإن كان ذلك من خلف الستار.

في تلك الأيام التي سبقت اندلاع أهوال الحرب، كان الزمن يتحرك على وقع النبوءات التي تناقلها العارفون ببواطن الأمور. لم تكن معركة شرق البصرة، ولا تلك التي دارت

رحاها في بنجوين وديزفول وليدة لحظة طيش، بل سبقها همس اشاعة في الأروقة وشهادات تثبت أن ما قيل قد تحقق حرفيا.

وإن كنت اليوم أتحدث عن تلك اللحظات، فلأنني كنت شاهدًا على حدث جلل حين كنت طالبًا في الجامعة، غارقًا بين الكتب، حين أبلغني المرحوم أحمد رسول- ضابط صف في المشفى العسكري- وهمس لي بما يشبه الوحي:...

- مع فجر الخميس القادم، ستشن قواتنا بهجوم كاسح على القوات الإيرانية... لتبعد مديات مدافعهم عن قصباتنا ومدننا الحدودية: خانقين، زرباطية، مندلي، البيضة، وغيرها.

توقفت لبرهة، أصغيت للكلمات، ولم أملك إلا أن أسأله مرتبكًا:...

- أأنت واثق مما تقول؟ من أين لك هذا النبأ؟

ابتسم بهدوء وأجاب:.....

- الأمور حُسمت. لا مجال للتراجع. القيادة عازمة على حماية مدننا من القصف المستمر رغم أننا لسنا في حالة حرب. لا حل سوى الهجوم... مثل هذا القرار لا يُكشف سوى في دواوين القيادة العليا وقادة الألوية والفرق. لكن المعلومة وصلتني، أنا الطالب المدني، فما بالك بالاستخبارات الإيرانية؟

قد تكون القيادة الإيرانية استهانت بالأمر، ظنًّا منها أن العراق سيتردد، لكنها لم تكن تعلم أن النية قد ترسخت، وأن الهجوم لم يعد مجرد احتمال بل أمر واقع. وأكاد أجزم أن النبأ وصل إليهم عبر خلاياهم النائمة، والطابور الخامس الذي تغلغل بين صفوف العراقيين من خلال أحزاب مرتبطة بولاء خارجي، تنشط في الظلال وتنتظر الإشارة.

فكان قصف المدن العراقي أشبه بنداء للخونة والمعارضين بالتحرك وتفعيل الفوضى في الداخل لزعزعة ثقة الشعب، وقد خرجت مظاهرات مؤيدة لخميني في الخالص، كربلاء، النجف، الشعلة، مدينة الثورة، والعمارة. رفعوا بها صورًا الخميني، وفي المقابل مزقوا صور صدام والبكر، وكأن الشرارة انطلقت من تلك اللحظة قبل أن يُشعل فتيلها على الحدود. تلك كانت لحظة المفترق قبل أن تستفحل الفوضى في الداخل، حين اختلط صوت المدافع بهتاف الجماهير، وأصبح القرار لا رجعة فيه.

3- ارهاصات مقاتل

على أية حال تم حجز إجازتي الدورية والتي تأخذ دورتها الاعتيادية الكاملة حول شجوني وأحاسيسي وشغفي للحياة كدورة القمر حول الأرض، فلن أنال نصيبي من متعة الإجازة؛ إلا بعد مرور 28 يوما بالتمام والكمال على ألتحاقي الآنف بالوحدة، ولن أصل بيتنا إلا في يوم التاسع والعشرين. وحين أصل بالنور الذي يفيض في مهجي؛ أصل كالقمر الذابل في آخره، لا طاقة لي بإزاحة دجى العناء والكلل حتى يمضي يوم من الإجازة لأستعيد بها طاقتي. ذلك الثراء أستقطبه من ذاكرة المدينة ووهج والدتي التي تنتظر رجوعي سالما بشغف وعلى أحر من الجمر...

تدور شهورُ الإجازة

كدورةِ القمرِ

في حر الصيف وجلدِ الشتاءِ

أصبرُ صبرَ الشجرِ

ثمانٍ وعشرينَ تمضي بدُرَّتها

وأنا أتتبّعُ وجهكِ

في وجهِ القمرِ

حتى إذا حلَّ التاسعُ والعشرون

هطلتْ أشواقي عليكِ كالمطرِ

يومٌ أحتاجُهُ

كي أعودَ بطاقةٍ

أروي قلوبَ الطينِ بالأزهارِ

أستلهمُ النورَ من عينيكِ يا أمّي

ومن وهجِ دفئكِ...

أبدّدُ انكساري

00000

لطوال فترة الغياب، يتولد شعور بالنسيان، نسيان بمعنى وجع ينبثق من الحنين والتذكر. كأنني أُحاصر بقوى خفية تنتهك إرادتي... وساوس، شجون، وشياطين تجرّني نحو عزلةٍ لا أطيقها. أصبح الحالُ ميؤوسًا منه؛ جسدٌ متعب لا يهوى الحياة، وعقلٌ مقيد لا يستسيغ الوجود بها.

مررتُ بمرحلة مظلمة ارتبط فيها فكري بحسابات معقدة وانشغالات بعيدة كل البعد عن أحلامي، وكأن قوى خفيّة كبّلتني، منعتني من التحرك بحرية، وغلفتني بخوف دائم وترقب مأساوي من مجهول يتربص بي. شعور ثقيل بقرين شيطان حجب عني أنس الحياة ورقّتها التي لطالما حلمت بها وتأملتها بعمق.

مقيد بقوى ملموسة تقشعر لها البدن، تجيرني إلى حيث التمعن بالمصير الأسود القادم، تدفع بي لحالة التوجس والانحلال، لحالة الهوس والضياع، حتى خُيِّل إليّ أن النهاية التي تدحرجت إليها بلا إرادة بدأت تقترب من خط بدايتي، تدور حولي بصيغة ما عبثية لا منطق فيها...

ومع ذلك، بقيت أفتش عن صيغةٍ تُشبهني، عن تجانس ما مع الواقع المرير، بشيء من التصلّب وعدم الاكتراث، أو ربما، بقدر من الاكتراث الذي لا يملك القدرة على مجابهة طوفان التفكير السلبي. لم يكن خوفاً، وإنْ كان مشروعاً، بل هو يأس عميق على ضياع شبابٍ انغمس في معمعة فارغة، وارتُجَّ بين أصداء هوسٍ ولد من لا شيء، من عنجهية عقيمة.

هكذا تغذت مشاعري من آلام قلبي، ومن اغتمام والتياع روحي، كأن سوط العذاب له وقعٌ أثيريّ، يُثير تراب الفكر ويغبر أجواءه. تلك القوى الخفية التي تلاحقني بينما أنا مغمور في ظلمات حالة غير الطبيعية ضمن جدول شبابي، أهجس بها كما لو كانت ضربة ريشة عبثت بلوحة فنية، فجعلت خصيمي شبح يدور في فلك ظني وبشيء من التحدي، متأبطاً هوسي، تابعاً إرادتي دون أدنى شك...

عندها كنت أعتكف في وحدتي طويلًا، أشتكي إلى نفسي ذاتي، وأغوص في بحر من الصمت العميق أراجع خلاله كمًا هائلًا من القضايا النفسية، والذهنية، والفكرية، والوجدانية،

والمستقبلية؛ تلك التي جرفتني خواطرها إلى واحة التيه في ذلك الصمت المقيت.

كنت أقلب الأوضاع بينما جذبتني أمواج أمل ضعيفة لا تكاد تبلغ شواطئ الأحلام، فأجد نفسي تنحرف طوعًا نحو الصبر والخمول، متشبثة بتلك الأمواج الهادئة حتى حين. وهناك، في صومعة السكون، اكتشفت بلسمًا من رجاء كنت في أمسّ الحاجة إليه، فأمسكت بالقلم ودفتر الذكريات، وخطّت يدي ما يعينني على البقاء حيًّا رغم مرارة ما أحس به.

أحسب المكان منتجعًا للتغيير الجدلي، وحالة ظرفية ضمن تلك البقعة من الصحراء، فأتنقل من يأس عميق إلى متعة شكلية بالمحيط من حولي. إنها تجربة مريرة لا ينالها كل كائن، تجربة فريدة تكشف عن معدن الإنسان، وتسمو بقدره، وتزيده جلدًا وصبرًا على الأناة. إنها بحق مدرسة الحياة، حيث تتعلم فيها التحمل والصبر والتأمل.

هنا، تتجلى صيغ العناء والبكاء بلون أحمر، أمرّ فيها بجوع وعطش، وجنون وملامة، وتشتت وصمت. تزداد الحدة على عاتقي، وقد تقودني التجربة لأكون رحيمًا حتى مع عدوي؛ إذ أرى فيه انعكاسًا لذاتي، فهو كذلك مأسور بالقيد ذاته الذي قيدني...

هكذا أشغل نفسي بأمور شتى لتجنب الكآبة الدائرة بين صفوف الآخرين من الجنود، أميل للكتابة ولعبة الشطرنج والدومينو والنرد والدامة، أنسى بها هم البقاء وحيدا؛ كي لا تتعفن الأفكار

وتمتهن الحالة النفسية في جريد ضعضعتها وجمودها وضعفها قصاد الوضع المزدرى..

أحيانا تؤول القضية إلى قضية نفسية بحتة، حيث أجد ذاتي المتعلم الوحيد بين رفاقي، كل الذين معي القل مستوى مني في التعليم، بل أجزم جميع عناصر الوحدة لم يكملوا الابتدائية أو المتوسطة، انا الوحيد الجامعي بينهم، لهذا أجد بون شايع بأفكارنا وبطرح القضايا، فلا أستطيع الانسجام مع تلك الشلة.. فأدخل في معترك التعقيد والكبت، أواجه الصراعات الحسية التي تسيطر على سلوكي وتصرفاتي المعتادة.

أذا ما أخذنا بعين الاعتبار النموذج المحيط بي يعتبر متخلفا نسبيا على ما أنا عليه، أجدهم أقل حيوية ولينا وإنارة، لا يواكبون مستوى التفكير الذي أتحلى به. لذا أهجس بذاتي وحيدا، مميزا بالتطرف والشعوذة وعدم المبالاة والخيال الذي يسرقني من الوحدة لغاية الدفتر والخواطر، فيما زميلي الآخر يكون بعيدا عني في واجب الرصد أو يتمتع بإجازته الدورية.

من الناحية الذهنية، أجدني مثقلًا بوحدةٍ تحاصرني من كل صوب، تذكرني بأهلي، بحبيبتي، بأصدقائي الذين غابوا عني جسدًا لكنهم ما زالوا يقطنون ذاكرتي. لذا، ألوذ بمقر القيادة، أتنفس فيه عزلةً مشوبةً بالحنين، وأشغل نفسي بتنظيف الملجأ من غبار لا ينتهي، وأرتب أدوات العمل: الخريطة، المسطرة، جهاز التوجيه... أو أعد الشاي برفقة المخابر سبتي، الطيب الذكر، الذي لا يفارقني.

أهـرب مـن واقعـي إلـى عـوالم الأحـلام والرجـاء، إلـى وجـه الحبيبـة، أو أكتـب عـن هـذا العـالم الغريـب الـذي يحيطنـي بخيـالٍ متـدفق كـالنهر، يصـب محتـواه فـي ذهنـي. تراودنـي صـورٌ مـن طرقـات مـدينتي، مـن المقـاهي، مـن النـادي الثقـافي والرياضـي، مـن طفـولتي التـي تتـراءى لـي كحقـل ألغـام، تنفجـر فـي خـواطري لتـذكرني بأيـامٍ جميلـة، بعضـها نـابض بالحيـاة، وبعضـها مشـبع بالموت.

رحلة عبر الذاكرة

أحلامـي مركبـة فضـائية، تنقلنـي عبـر ماضـيّ إلـى حيـث يسـتهوي القلـب والفكـر، تطيـر بـي فـي حقـول الـذاكرة، فـأهجس بـذاتي كطـائر مهـاجر يبحـث عـن واحـة، عـن شـجرة تظلـه، عـن حلـمٍ هـارب مـن جنـون القصـف المنهمـر علينـا كزخـات المطـر، خاصةً في ساعة الغروب أو مع طلوع الفجر.

بهـذا أفـضّ كربـي، وأعيـد حـالتي إلـى واقـع المدنيـة، بشـيءٍ مـن نسـيان الـذات، عبـر حشـر فكـري فـي صـومعة الزهـد، أو فـي مضـمون الـورق الـذي صـار يحمـل همـي وعجـزي وأحلامـي فـي سطوره.

مـن الناحيـة الفكريـة، أجـد الفكـرة فـي ذهنـي كعصـفورةٍ هربـت مـن قفصـها، تقفـز بـين الأغصـان، حسـب الأحـداث التـي تهزنـي وتشـغل بـالي. ألاحقهـا مـن غصـنٍ إلـى غصـن، وفـي لحظـات الهـدوء أمسـك بـالقلم، أشـخبط فـي دفتـر الـذكريات، صـديقي الأقـرب، أرسـم فيـه وجـه امـرأةٍ أشـتاق مـداعبتها، أو أكتـب

خاطرةً تنقلني إلى حضنها، أو أدون حدثًا وقع أمامي، أو طرفةً سمعتها من زملائي، أو حالةً شاهدتها في المرصد.

كنت بارعًا في رسم وجه الأنثى، لعطشي لتفاصيل الأنوثة، ولشبقي لملاطفتها. كنت أبرع في إيضاح تلك العيون المسحوبة، والشفاه المشتعلة المنتبذة برفقٍ للأمام، وكأنها تصرخ بالشبق الملتهب في ثناياها. وكنت أكتب كل يوم قصة قصيرة، أو خاطرة، أو صفحة نثرية، أعبر فيها بصيغة أدبية مرموقة عما يجيش ببالي، وما تقيؤه إرهاصات الفكر.

هذه الحالة مستمرة، جارية، لا تنتهي، كالسيل الذي لا أستطيع كف جماحه. لذا تجدني أتجدد في واقعي، وفي تكويني اليومي، كأني أولد من جديد، أحاول قتل الملل بأسلحتي التي أتميز بها عن الآخرين. ومع مرور العمر من بين أصابعي، أتحسر على فقدانه في تلك الفلاة، دون مشاركةٍ حقيقية تعيد لي ذاتي الهاربة خلف المجهول.

ومن الناحية العاطفية لم أبرح وجه حبيبتي قط، وأنا أتأمل تقاسيمها النورانية تفيض سحرا وغواية في أعماقي. فهي معي أينما أكون في عصف النار، أدافع عنها بيقين إيماني. ألتقيها في مساءات الهدوء، في ذاكرة الصبح، كفراشة تجذبها الأضواء والزهور، ترسم معي خطوات أحلامي الأسيرة، تسافر معي عبر نسائم الفجر فوق خضرة اليباب البهيجة من لدن الحياة، المسترسلة في مهج الشوق، أسمع صدى صوتها النغام يدغدغ الحلم فتدخل في قيده كحالة إيجابية تتبعني،

تنـاديني، فـيطفح وجههـا أمـامي كـوردة مسـجورة بـالألق، فتكبـر أمام نظري مع كبر المسافة بيننا دون أن نلتقي.

تلـك الحالـة باتـت تتـراءى للغيـر كحالـة منفـردة، أهجـس بهـا حالـة خاصـة تخصـني، وخاصـة مـع عـوادم الغسـق التـي صـارت تغشـى بصـري بالملـل والضـجر، تلفنـي بسـكون عباءتهـا دون أن أشـعر، حيث ترميني من قمة ألقي لوهدت الصمت والخمول..

حـين ترتقـي مخيلتـي نجـوم السـماء أجـدها تبحـر فـي مسـارب الأضـواء، يتوقـد مكـان مـن توقـدها، بـل أنهـا تسـتلب طاقتهـا مـن ضـياء النجـوم لتريـق شـغفي بهـا وشـغفها بـي، فتسـطع تهلـيلا بلقـائي بهـا حتـى لـو عبـر الخيـال الممتـد بيننـا. أو ربمـا تخطـر فكـري بشـرارة فـي لحظـة النسـيان، لتجعلنـي انتبـه علـى الشـهب الـذي يحمـل وهجهـا، متـأملا وجههـا الـدافئ وهـو يغمرنـي بلطفـه، عابرا فوق قنطرة المشاعر.

مـع هدهـدة المسـاء، ينبعـث مـن داخلـي دخـان ذلـك التخـاطر، ويتـوهج بـرق الإمعـان فـي خلـوتي، وأنـا أنـاجي النجـوم التـي ألفتهـا بوحـدتي. حينهـا أشـعر بهـا كأنهـا تـدخل فكـري كنحلـةٍ تلسـعني بغتـة، فيمـور ألـم الشـوق عبـر شـرايين إحساسـي، وأسـمعها تكلمنـي، تجـادلني، تعـاتبني، ثـم ترقـد طـويلًا فـي فكـري وجفـوني، وتغمـر الأجـواء بلطافتهـا كطيـفٍ لا يـأبى مغـادرة إرهاصـات الخيال.

هكـذا تصـطبغ حيـاتي بلـونٍ قـدري وسـحري، تتعلـق ذراتـه بـي تحـت وطـأة عواصـف الفكـر التـي لا تهـدأ. ومـع كـل موجـة

اتصال، تزداد حدّتها وتوهّجها، فتنثر كياني كجزرٍ صغيرة، تتنفس عبق الماضي من ذاكرة لا تنطفئ.

كنت أشعر بخيوط العُقد تتكوّر من لا شيء؛ من الظن والخواء، من الصمت ولسعة الهواء الحاد في أنفي، من التيه والشجن الدائر في عقلي. أهجس بالخناق يشتد على عنقي، يتلاعب بقدري، يرمي بي إلى وهدة الجنون، فأستكين إلى نغمة تلاطف صمتي، أو حجرٍ أتعثر به، فيتدحرج في هدوئي كوجلٍ يقيد خطواتي.

عُقد تتكوّر من صورٍ مراءة، ومن خطوط الخيال، من أحداث الطرق، ومن السكون العائم في محيطي ووجداني. عندها أهجس بتلك الأشياء كأنها تدب فيها حركة، كأنها تنتفض من جمودها، بمجرد أن تعي شكلي وحالتي ووجداني وظني بحبيبتي وقدري.

تلك العُقد التي تمر بي؛ تجلد ذاتي بأفكارٍ متطرفة، فأترنح بين القنوط واليأس، وأخور في أزقة التأمل. حالات شدّ ورخاء معقدة، متداخلة، تنقلني إلى حيث التيه، يرافقها صمت رهيب يغشاني، يسلب أحلامي، ويقطعني تمامًا عن عالمي الخارجي.

ذاك يحدث بحكم صنف عملي وحجم الخطورة التي ترافقني خلال تواجدي في المرصد أو في موقع القيادة، حيث أجد نفسي مركبة من عدة شخصيات متداخلة فيما بعضها في قالب واحد، مكورة بنسيج خشن من تلك العقد المتداخلة في شخصيتي..

مـن ناحيـة أخـرى إذا مـا أخـذنا واقـع الجبهـة العملـي؛ حيـث دائمـا مـا تسـتهدف المراصـد، لفعاليتهـا المـؤثرة علـى العـدو، وفعـلا قبـل أن يـأتي أمـر تحـرك وحـدتنا كنـت قـد تعرضـت لعـدة مـرات لمـوت محقـق، وكنـت أنجـو بقـدرة عجيبـة، قـدرة لا يملكهـا إلا الله. كـان ذلك من خلال تركيز العدو على محاولة تدمير مرصدنا..

لـن أنسـى أبـد لحظـة انفجـار قذيفـة مـدفع علـى بعـد متـرين فقـط منـي، لا يفصـلها عنـي سـوى جـدار اسـمنتي، عنـدها نفـذت شـظية مـن شـظاياها عبـر كـوة مزغـل المرصـد، عنـدها تجمـع علينـا جنـود المشـاة محـاولين إنقاذانـا مـن المصـيبة، كنـت قـد تفاجـأت بتجمعهم، فسألتهم ما خطبكم، فقالوا:...

- قذيفـة مـدفع ثقيـل انفجـرت علـيكم! ألـم تسـمع صـوت الانفجـار؟ أخـرج وأنظـر لـدخانها وغبرتهـا التـي ارتفعـت لعنان السماء..

حينهـا خرجـت مـن المرصـد إلـى حيـث ممـر السـاتر، عنـدها تأكـدت مـن الحـدث، بقيـت فـاغر الفـاه، مندهشـا، وبقيـت دهشـتي معـي لهـذه اللحظـة.. كيـف بـالله تنفجـر قذيفـة مـدفع ثقيـل بقربـي ولـم أسـمع لهـا هسيسـا ولا دوي انفجـار ولا صـدى يخلخـل الأجـواء، وكأني كنت في مركب الخيال بعيدا عن موج الأثير.

تلـك الحالـة المحيـرة لازمتنـي وسـتبقى لغـزا محيـرا لا أعـرف لهـا تفسـيرا، وكـأنَّ الصـوت يختنـق فـي المسـافات القصـيرة ويشـرق فيمـا بعـد خـارج دائـرة الوحـدة، لشـدة ضـغط العصـف فـي الأمتـار القريبـة مـن مركـز التفجيـر، وكـأنَّ ذاك الصـوت يُقـذف مـع

العصف خارج حدود الدائرة مع تلك الشظايا المتناثرة. أي أنه لو أخذنا خيط من مركز سقوط القذيفة بطول مترين، ثم درنا به حول مركز الانفجار، فأنه يصنع دائرة الوحدة التي بها يختنق الصوت بداخلها، هكذا أفسر الحالة، فيما ينفلت ذلك الصوت بمجرد أن يتجاوز حدود دائرة الوحدة المشار إليها مع العصف. أي أننا كنا على بعد متر أو مترين من الانفجار.

والحقيقة نحن الثلاثة لم نسمع صوت ذلك الانفجار، كنا منشغلين بحديث جانبي، مسندين ظهورنا على جدار المرصد المواجه للعدو، ولم ينقطع حديثنا حتى دخلوا علينا جنود المشاة.. لقد حال بيننا وبين القذيفة جدار المرصد المبني من آجر الإسمنت، مثلما حال من قبل ذات الجدار بين رأسي وإطلاقة قناص تقصدتني، حين كنت واقفا أمام المزغل دون إنتباه، فاصطدمت تلك الإطلاقة بالجدار الخارجي قرب أذني.

خلال تلك الفترة كنا أشبه بالمعتقلين في قضايا سياسية تخص أمن الدولة، وكأنهم تركونا في بؤرة مقطوعة عن العالم، في وسط بركان من النار المتفجر والعقد الدائرة بنا تنمو كالجدري، لا حل لها ولا لنا منفذ خلاص! لنرقد هناك في تلك البقعة المقطوعة فوق فراش الهم والغم متلحفين بأزيز الرصاص والشظايا.

عجز أصيب به بدني وذهني، خلخل الذهن نتيجة القرف والوسخ الذي تراكم على الجسد كالبكتيريا، لقلة المياه وقلة الاستحمام، للظرف المزري الذي كنا نعيشه مع هبوب

العواصف الترابية المستمرة، تلك العواصف التي تأبى أن تفارقنا وهي محملة بغبرة الصحراء أبدا، تلك التي تهب مع ارتفاع الشمس في الأفق وتستكين مع انكسار الشمس بتجاوزها خط الزوال قبل الأخير، وكأن حرارة الشمس هي من تثير تلك الزوابع والرياح لتزيدنا قرفا وعذابا.. كنا نستحم تحت تلك الظروف بالعراء، في نقرة جانبية برفقة الخطر الدائر حولنا والشظايا العابرة فوق رؤوسنا.

هكذا سارت الأمور على مدى ثمانية أشهر تقريبا، حتى وصل الجزع حدود القرف والانتحار أو الهرب من الخدمة لنجدة رقائق الجسد من التخشب والعفونة..

كنا نعلم أن الموت يتعقبنا كما يتعقب الظل صاحبه، وندرك أن الجرة التي سلمت مرارًا لن تُعافى إلى الأبد. النجاة ليست قدرًا دائمًا، بل استثناء مؤقت من قانون الفناء.

كنا نغرق في التعفن نتيجة الوسخ، البدلة العسكرية التي تشبعت بالعراق يبست على الجلد، باتت تحز الجلد بحدة الخشونة التي تلبست بها. ولا نملك غيرها لنبدلها.

جزعت الروح الوهدة والسكون.. تلك الأيام محت كل أثر للعاطفة، جففت منابع التفكير، وأطفأت نيران القلب. كنت أشعر أن فتنة الجسد قد ذابت، صار هيكلًا بلا رغبة، بلا رجولة، بلا معنى. حتى قضيبي، ذاك الرمز الصامت لوجودي، أعتصب بالكسل، وتلوث بالوسخ، كأنه ميزان علاقتي بالحياة، يترنح بين النسيان والاشمئزاز.

في نهاية المطاف، كنت أستلقي على ظهري كمن يطلب النجاة من السماء، أترنح بين الذكريات، أتنقل من نجمة لأخرى، كأنني أبحث عن قدرٍ جديد، عن هدفٍ يوقظني من سباتي. كنت أشتاق لحركة ما تكسر هذا الجمود، لحالة تنقلني من يأس إلى حياة، من قرفٍ إلى شغف.

التغيير ضروري في حياة المقاتل، كانه حلمً يسرح فيه، كإجازةٍ قصيرة، أو معركةٍ دامية، أو عوقٍ يعلّمني الصبر، أو أسرٍ يعلّمني الحرية، أو ظفرٍ يعيد لي اسمي. كل تلك كانت منازل للحياة ممكن أن تصادفني وأنا في موقعي، ممكن أن تكسر طوق السكون الذي يقيدني، كما يقيد الحديد ساقيّ السجين.

حتى الملجأ، رغم سكونه، كان ينبض بالحركة، حين ينقلك الى السكون، إلى التفكير، حين يحميك من الشظايا العشوائية، وكذلك المدفع، رغم صمته، كان يزأر حين يحين موعده، يقذف قنابله كمن يعلن عن وجوده، يصرخ في وجه العدو: نحن هنا، لا تتجاهلنا. إلا نحن لا تغيير في مجال العاطفة.

ما كان يغيظني أني لا أعرف سببًا آخر لوجودي سوى أن أَقْتِلْ أو أُقتَلْ. لم أتخاذل يومًا عن الدفاع عن الوطن، لكني كنت أهجس أن هذه الحرب، بكل ما فيها من دماء ودموع، كان يمكن تجاوزها لو وُجد بيننا عاقلٌ واحد ينظر بعيدا.

كنت أشتاق لإحداث تغيير جذري في مسار حياتي، كالهروبٍ خارج الحدود. فمسار الحياة العسكرية غير محدد، طويلٌ

للغايــة، لا ينتهــي إلا بــالموت، أو الإعاقــة، أو الوقــوع فــي الأســر. مــا دامــت الحــرب دائــرة بــلا أفــق واضــح لانتهائهــا، فــإن أمــن المــرء يظــل مهــددًا وســط المخــاطر التــي تحاصــره: شــظية تائهــة قــد تختــاره هــدفًا لعشــوائية عملهــا، أو رصاصــة طائشــة تتــذكره فتتحقــق غايتهــا، أو حــادث دهــس، أو غيــر ذلــك مــن منغصــاتٍ تلازمه وترافق الحالة التي يعيشها.

كــل ذلــك يُنســيه طبيعــة الحيــاة التــي خُلــق ليعيشــها، ويبعثــر أحلامــه كشــابٍ فــي مقتبــل العمــر، يحلــم ويخطــط للمســتقبل. تلــك الأفكــار تتــواتر كمــوجٍ غاضــبٍ يلاطــم حدســي، ثــم تتركنــي فــي دوامــة انتظــارٍ مضــنية للمصــير، المهــازل لا تــرحم ولا تنتهــي. تفــيض مــن رحــم الواقــع، تتــرك أثرهــا عالقًــا فــي الــذهن، تســتبيح الخيــال بــلا إذن، مــا دامــت الحــرب مشــتعلة، دائمــة الحركــة، تتلاعــب بالمصائر ببرود.

العيش فــي قلــب المعركــة، داخــل بقعــةٍ ســاخنةٍ لا تهــدأ بفعــل الجــدل القــائم، يضــمن ألا ينقطــع ســيل الأفكــار التــي تؤرقنــا. إنهــا حالــةٌ مطلقــة مــن الصــراع، كإعصــارٍ يعصــف بــالأفق، يحمــل بــين ثنايــاه فوضــى التــدمير، ناتجــة عــن بركــانٍ الحقــد بــين قــادة البلــدين. هــذا الحقــد يصــعّب المشــاعر، ويقســو علــى الــذات المســجونة فــي أتــون الحــرب؛ يصــيبها بتهــرّؤٍ خفــيٍّ فــي الــداخل، وآخــر بــائنٍ علــى الملامح، لا يشعر به إلا ذات العلاقة المسجور في قلب النار.

حــال الجنــدي المحجــوز فــي خنــدق الترقــب، يشــبه حــال المــرأة الحامــل حــين تترصــد لحظــة الــولادة؛ تلــك اللحظــة التــي تختــزل

بين طياتها الزمن: أما أن تضع حدا للحظة العذاب بالموت أو الفوز بجائزة وليدها. كذلك كنّا نحن، نعيش بهشاشة عمر لم تشتد عروقه بعد، لا نعرف ماذا يخبئ لنا الزمن من مفاجآت مخفية، معلّقين بين مطرقة الغيب وسندان الرجاء، نترقب لحظة فارقة لن تتكرر مرة أخرى في حياتنا,,,

كثيرًا ما تجلّت تلك اللحظة أمامنا، كطيف خيالٍ مراوغ، تارة يقترب من الحاجز النفسي كالهمس، وتارة ينسحب إلى مسافة مجهولة، وكأنها فرصة تلاعبنا ثم تنكفئ، تهجس بها تحت خطونا ككثبان الرمل التي أغرقتها أمطار الفجاءة ثم شفتها شمس الوعي اللاهبة؛ فتتماسك بالوهم، وتنكسر بلحظة نسيم.....

تلك الفرص الغادرة، كلما تباعدت عنا، فتحت آفاقًا لفرصٍ أخرى أكثر دهاءً، تلتف حولنا في دورة لا تنتهي، كأنها قدرنا الذي نعيش فيه دون إدراك، كجنودٍ متربصين داخل فوهة المدفع، مدفع لا يكلّ من انتزاع لحظات الشباب، في غفلة خاطفة كقطةٍ تتوارى خلف جدار الغريزة، تنتظر لحظة انقضاضها المحتومة على الفريسته.

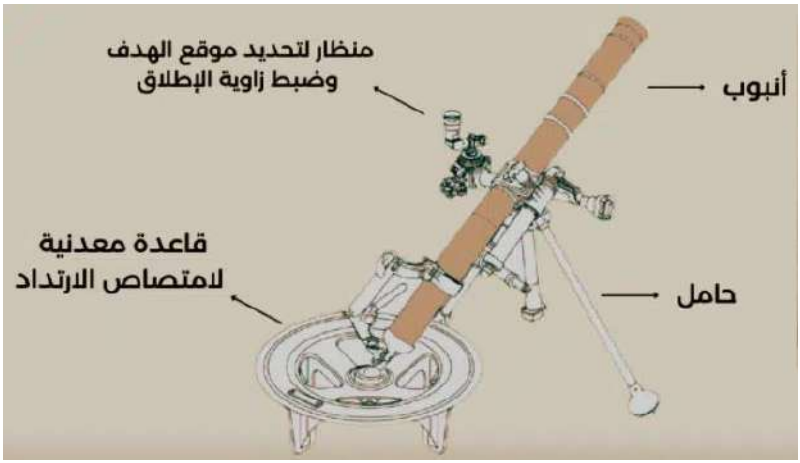

	60 ملم	81 / 82 ملم	120 ملم	240 ملم
وزن القذيفة	2 kg	4 kg	10 - 15 kg	130 kg
وزن الشحنة المتفجرة	200 - 400 g	750 - 900 g	2.5 kg	32 kg
أقصى مدى للقذيفة	3,500 m	5,500 m	7,500 m	9,500 m
مساحة تشظي الانفجار	150 m²	250 m²	650 m²	1800 m²

4- حركة الوحدة

مثلما أسلفت، وحدتنا هي وحدة إسناد مدفعي، بطارية هواوين ثقيلة من عيار 120 ملم. يبلغ طول المدفع قرابة متر وستين سنتيمتراً، يرتكز على قاعدة دائرية شبه مخروطية قطرها متر وعشرون سنتيمتراً، تتوسطها رأس مدببة تغرز في الأرض لتمنع انزلاق المدفع أثناء الرمي. يعتلي المدفع حاملين يثبتانه في موضعه كجذعين يذودان عن جسدٍ ثقيل في وجه العصف.

تحركت وحدتنا من قاطع الدير الزريجي، قبالة مدينة القرنة، أرض جرداء تمتد جنوب شرق هور الحويزة. منبسطة، رمليه ترابية، تنبسط كبحرٍ من الغبار حين تتفاعل التربة مع النسيم، لا نشوز فيها ولا نتوء، سوى بعض السواتر والملاجئ المتناثرة من صنع البشر، عبثاً تحاول أن تدرأ خطر الشظايا والرصاص الطائش.

تلك الأرض، بنعومة تربتها وهفاف ذراتها، توحي بأنها من مخلفات ترسبات الخليج عبر قرون عديدة. تربتها أشبه بنخالة الدقيق، تطير مع النسائم، لا تصمد أمام الريح، فتذرها زوابع تعانق السماء في بهرجة يومية، كأنها راقصات عاريات يفتنّ بعرضٍ مثير، يخلعن ثيابهن في طقسٍ من الجنون.

لا شيء فيها يبهج، لا ظل ولا مرتع، سوى تلك الملاجئ التي فرضتها الحرب، تختفي هالاتها في الأفق، فلا يظهر منها إلا نتوءات متناثرة، كقوارب صيد ضائعة في عمق البحر.

أرض قاحلة، حافية، مقفرة، مهجورة من الطير والشجر، تغير عليها العواصف كل يوم مع شروق الشمس، فتغشي الأفق بذراتها، وتقطع مدى النظر من مسافة عشرة أمتار. لا يقطنها سوى الجرابيع، تلك الكائنات العجيبة التي لا أدري كيف تتكيف في بقعة لا تنبت فيها حتى الأشواك. ما إن نعمر ملجأ حتى تشاركنا الضيافة، تسرق مؤننا، وتقرض ملابسنا وبطاطيننا، وكأنها سكان أصليون لتلك العزلة.

يقع قاطع الطيب شمال غرب هور الحويزة، ممتدًا عبر سلسلة من الهضاب التي تتصل شمالًا بامتدادات جبال حمرين الجرداء، في مشهد جغرافي تنصهر فيه الطبيعة مع حدود التاريخ. تفصل بين قاطعي الدير والطيب مسافة تتجاوز المئة كيلومتر، ويتوسطهما هور الحويزة، ذلك المستنقع المائي الواسع الذي تغوص ثلث مساحته في الأرض العراقية، بينما يتغلغل ثلثاه الآخر في العمق الإيراني.

أما جبهة جلات، التي سيأتي ذكرها لاحقًا، فهي تقابل مدينة علي الغربي التابعة لقضاء العزيزية في محافظة واسط. وتقع هذه الجبهة شمال قاطع الطيب، تفصلها عنه مسافة تُناهز المئة والعشرين كيلومترًا، على ذات الخط الحدودي الممتد كأنما يرسم خارطة الصبر الروحي على الوطن.

ومع بزوغ الشمس، حين بدأت تتسلل أضواؤها على استحياء، انطلقت وحدتنا بخطى ثابتة، تتعانق فيها لسعة البرد الفجرية مع رقة النسيم وضحكة الأفق. اجتمعت الرعائل الأخرى في

خلفية الوحدة، حيث مقر قيادة البطارية القريب من قيادة الفيلق الثالث. وهناك، تكتمل صفوف البطارية، التي تضم ثلاث رعائل بالإضافة إلى شعبة التموين المتمركزة في مؤخرة القطعات، استعدادًا للانطلاق كرَتْلٍ موحد نحو جبهة الطيب، في ساعةٍ محددة وبتوقيتٍ متفق عليه مسبقًا.

تحرك رعيلنا فجرا من موقعه الكائن في شرق البصرة من قاطع الدير – الزريجي، متجهين إلى خلفيات مقر الوحدة، كنا قد وصلنا كأول الرعائل فيما تبعنا الرعيل الثالث ثم التحق بنا الرعيل الثاني، بينما كانت شعبة التموين جاهزة للتحرك.

كانت الفوضى حاضرة بين صفوف الجنود، فيما كانوا ضباط الصف منشغلون في عد الجنود والعجلات وما يتعلق بالرعيل كل مهتم برعيله، بينما الضباط كانوا منشغلين بترتيب الرتل وإعطاء الأوامر وتكليف المهام والتحرك على وجه السرعة باتجاه مدينة القرنة التابعة لمحافظة البصرة قبل أن يتحرك العدو ويدنس الجبهة بهجومه، لنتخذ من الشارع العام الرابط بين بغداد والبصرة طريقا إلى قاطع الطيب في جبهة العمارة، وذلك في صباح الأربعاء المصادف 20\02\1985.

كنا قد جمعنا أشيائنا الشخصية والعملية على جِدا، وكل حضيرة أضحت مسؤولة عن حاجاتها، حيث صنف القداحين كانوا قد لملموا حاجاتهم وربطوا مدافعهم خلف عجلات كاز 66 الروسية مع محتويات الحضائر وفرش القدحين زائدا مجموعة قذائف منوعة من دخان وتنوير ومهداد معبئة

بصناديقها الخشبية حيث كل صندوق يحتوي على قذيفتين. ومع كل حضيرة بحدود عشرين قذيفة.
كل رعيل كانت بحوزته أربعة مدافع، فيما اختلف السياق عن سابقه حيث قلصت المدافع من ستة إلى أربعة مدافع لسعة الجبهة. بذلك زادوا عدد بطاريات المدفعية بخطوة ذكية، ليغطوا حاجة الألوية على جبهات القتال الطويلة.
كنا قد هيئنا أنفسنا كموقع قيادة، حيث حملنا أشيائنا من خرائط عسكرية وناظم توجيه المدافع، ومناظير، وأحكاك (البوصلة العسكرية) تخص التوجيه، وأوراق ورسومات التعليم التي تخص صنف المعين في عجلة خاصة، مع لوازمنا وفرشنا بالإضافة للوازم وفرش ضابط الصف (النائب الضابط) ضاحي ومعيته من سجلات الحضور والغياب والارزاق التي يكون مسؤولا عن أدارتها، والذي رافقنا في المسير لغاية جبهة الطيب بصفة القيادة.
كنت برفقة النائب الضابط ضاحي، فيما كان زميلي علي قد التحق بنا في خلفيات جبهة الطيب بعد أن أنهى إجازته الدورية، وذلك قبل أن تنفتح البطارية على أفوج لواء 14 المشاة... علما البطارية = ثلاث رعائل.

فيما كانوا مجموعة صنف المخابرة قد حملوا أسلاكهم ومعداتهم من أجهزتهم السلكية ولاسلكية ولوازمهم الشخصية في عجلة خاصة تبعت عجلتنا، بعدها تلتها عجلات القداحين ومن ثم التموين والسواقين في طابور طويل نتبع عجلة الآمر في مقدمة الركب.

مشينا خلال الطريق على نبض القلب الحائر بين الإقدام نحو المصير المجهول الشائك، وقلق المواجهة القادمة، وقد تبعت

عجلات رعيلنا عجلات الرعيل الثاني والثالث بنفس التصنيف. بذلك أصبح الرتل يتضمن أكثر من خمسين عجلة إذا ما أضفنا إليها عجلات التموين التي تحمل صناديق الأعتدة حيث لكل رعيل كانت مخصصة عجلة إيفا مليئة بالذخائر المتفجرة وعجلة كاز 66 تحمل ذخائر دخان وتنوير بالإضافة لعجلة تنكر الماء وعجلة القصعة نوع زيل روسية الصنع المعبئة بأدوات المطبخ والتركيب. بذلك كان لمنظر الرتل هيبة لطوله وتنوعه.

الأسئلة المحيرة بقيت مستعصية على الفكر واللسان، تتأرجح بين لهفة الروح وجدلية الاختبار، وأمور اخرى متشعبة ورائجة في أذهاننا. كنت أود أن اناقشها مع الشيطان المرافق لنا والدائر في رؤوسنا، وذلك قبل ان ندخل في معمعة المعركة التي لا أعرف زمنها وثقلها ومنغصاتها لأنها أول معركة سأشترك بها. كما أني غير متأكد من صحة الانباء الدائرة حولنا، وحجم دعاية المعركة وآثارها وقروئها من تلك التي سوف تحدد مصيرنا القادم في الحياة. تلك هي المحاور التي تتحاور بها النفس مع الأنا القابعة خلف جدران الوحدة، المتأملة شيئا من حالة السعادة والحياة الوردية وهي في خضم تلك الأوضاع المعقدة، لبحث حيثيات العقد التي تتفاقم في دروبنا مع بروز سنم تلك العقد والأحداث الجسيمة في مسير حياتنا كمطبات لابد من تجاوزها، والتي تحدد إلية المصير القادم والمستقبل المجهول.

الكل يعلم بأننا ماضون لمواجهة عدو بغيض طامع بأراضينا- ومن المحتمل أن يشن هجومه على قاطع الطيب قبل وصولنا، وذلك بحسب قوة رواج إشاعة الخبر الدائر في الأوساط العسكرية، الإشاعة قوية جدا بحيث لا مجال لتكذيبها أو تجاوز منغصاتها. حيث كلما تسارعت وتيرة الخبر، وتجلّت دقته، كلما اقتربت الواقعة من الفعل والتحقق، كلما دنت ساعة الصفر من أوانها، بُعثِرتْ ثوانيها بين الصفوف، اربكت نفوس المقاتلين والمعنيين، قد تصل أصداؤها إلى الضفة المقابلة، حيث الفوضى العارمة تتهيأ للانفجار. هكذا كانت المعارك السابقة، حيث يكون الطابور الخامس اسرع من البرق في نقل شرارة الحدث، فيُشعل الهواجس قبل أن تشتعل البنادق.

كنا نركض في الوقت الضائع من التهيئة، نلهث في وادٍ عميق من التيه، بين أن نبلغ نهاية النفق أو نغرق في ظلمته. يلاحقنا صوت الفيض الهادر، يتبع أثرنا، يدور خلف عجلاتنا، يهدد باجتياحنا قبل أن نبلغ الخروج. كنا معلقين في زمن الهدوء الأخير، ذلك السكون الذي يسبق العاصفة، هدنة غير معلنة، تفرض نفسها لتمنحنا فسحة التهيئة والتفكير، تُمهّيدا لساعة الصفر.

في تلك اللحظات، حين يتقاطع الشرود مع التقصي، وتوشك الثواني أن تفلت من قبضتنا، نكون قد بلغنا ذروة التزعزع الذاتي مع بلوغنا قمة الرجاء والعزيمة بنفس الوقت، متهيئين فنياً ونفسياً، نُراهن على النصر، ونُراكم حبات الأمل في طريقنا لموقع المنازلة.

لكن، يا ثُرى... هل ستسلم الجرة كما سلمت من قبل؟ هل سيتكرر النصر، أم يتجدد الخطأ ونُهزم كما حصل في معركة شرق البصرة الأخيرة؟ لا أدري لماذا ينحرف الفكر أحيانًا نحو وهدة اليأس، ولماذا يذرأ الشؤم سمومه في الوجوه، ربما لأثر غصةٍ سابقة وجرح لازال لم يندمل.

نحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى إدارة العزم، إلى مصالحة الذات، إلى توجيه الدفة نحو الصمود. علينا أن نرسم صور الثبات على جدار القلب، لننزع عنه رعشة الخوف واضطراب اللحظة، ونُحصّنه من الجبن قبل المنازلة. صورةٌ لا بد من نقشها على قبة الإرادة، كي نحمي ذاكرتنا من سهام التشكيك، ونُغشي بها عاطفة الماضي، ونرفق صبرنا بالجلد، ونُركز على إدارة الأزمة بحكمة وثبات.

علينا أن نرسم الأمل على الوجوه، كي تصغي لنا ترنيمة الحياة القادمة. نخطّه على الأذرع، ليعمل الجسد بيقين، ننقشها بالمنطق ليُزهق الباطل بالحق. نغرسه في باطن القدم، لتصمد وتثبت في أرض المعركة، فنأخذ بزمام التحدي ونبجّل العزم بالنصر. نرسمه على شبكة العين، لتبقى ساهرة تحرس الوطن من الغدر والعبث، لتزرع في أوصال المكبلين تفاؤلًا يرضي أطفالنا ونساءنا، ونحن نحصد ثمرة النصر المؤزر.

لكن يبقى احتمال الفشل قائم، كما احتمال النصر، كلاهما يتساويان في النسبة والحظ، والحسم مرهون بمدى الصمود والتهيئة والحذر. وتبقى هذه المعادلة مطروحة على طاولة

الـذهن باسـتمرار. ولتفـادي الفشـل الحقيقـي، لا بـد مـن تفكيـرٍ يتجـاوز بنـا جديـة غـيض العـدو، كـي تبقـى المقاومـة قائمـة حتـى نكسر شوكته وهيبته أمام نفسه، لنزعزع ثقته بنفسه.

علينـا أن نبحـث عـن سـبل أكثـر فعاليـة وأدوات أكثـر شراسـة مـن أدواتـه، ولهـذا تتهيـأ القيـادة لمعالجـة الفشـل المحتمـل، فتـزج بكـل مـا لـديها مـن احتياطـات وطاقـة، لتحـوّل صـيغة الفشـل إلـى نجـاح أكيد.

لهـذا كانـت تشـكيلات جيشـنا منظمـة تنظـيم عـال، تحمـل فـي تكوينها طـابع الجد والدقـة، أكثـر ممـا تتصـف بـه تشـكيلات العـدو، التـي تحمـل فـي طابعهـا الفوضـى والخيبـة، لسـيطرة اصـحاب العمـائم علـى إدارة شـؤون الدولـة. لـذا تجـد معظـم قـواتهم المشـتركة فـي القتـال هـم مـن المـدنيين دون تـدريب، كمـا تعـم تلـك التشـكيلات العبثيـة وعـدم التنظـيم، ناهيـك عـن إسـفافها بـالأوامر لكثرة الاجتهادات في تطبيق الامر.

فـي لحظـات التشـتت، تتـزاحم الأسـئلة فـي الـذهن، ولا أجـد لهـا جوابـاً. لـو وضـعتها فـي منخـل الفكـر، لعزلـت المشـؤومة منهـا عـن تلـك الرؤومـة المتفائلـة، لكنهـا تبقـى خليطـاً مـن العبـث يحـيط بفـيض الحيـاة التـي نلهـث خلفهـا. أنهـا خلـيط عبـث تحـيط بفـيض الحيـاة التـي نسـعى خلفهـا، اسـئلة تنبـع مـن واقـع سـليط مفـروض علينـا، قدريـة تـتحكم بمسـاراتنا، وتلـك البصـيرة مـن العقـل تفسـر لنـا حصـيلة ابتعادنـا عـن الـنهج الواضـح، فنشـعر بهـا حـين يشـتد التحدي.

مـن أيـن تـأتي تلـك الأفكـار المقيتـة التـي تعصـف بالبـال؟ لا أدري... هل تنبع من مستنقع الشؤم، من صور الشهداء بعد كل معركـة؟ أم مـن واحـة العقـد فـي الشـارع والمقهـى والمعسـكر، ام مـن التفـاؤل الـذي يتبـع كـل نصـر، حـين نـوقن بقـدرتنا علـى كـفء شر العدو؟

لمـاذا تفـرض هـذه الأسـئلة المستعصـية نفسـها علـى العقـل؟ هنـاك أمـور تجـري فـي الـنفس لا أفهمهـا، بعضـها ينتظـر التحقيـق، وأخـرى جاثمـة فـي الطريـق، تنتظـر الشـروع. الحـب، الـزواج، الأحـلام الورديـة التـي أتأملهـا، ترافقهـا نقيضـها مـن مـوت وعـوق واسـر تلـك التـي أتهيـب منهـا. هكـذا ننتقـل مـن فكـرة لأخـرى، حسب موقع القدم والصورة المراءة في الذهن.

هل سنترك تلك الأمور اللطيفة على غارب الزمن؟ هل سيتكفل الـزمن بحمـل أثقالنـا ومتاعبنـا؟ نحـن علـى بعـد خطـوة مـن واقـع المصـير، مـن منازلـة عـدو مـدعم مـن قبـل الصـهيونية يـود الفتـك بنـا، يريـد أن يمحـو البهجـة مـن حياتنـا، أن يـدفعنا إلـى مسـتنقع الـذل والهـوان، أن يجردنـا مـن عفويتنـا، مـن قـدراتنا، مـن محبتنـا وعبادتنا وأفراحنا.

إنـه العنـاء الـذي يتـأرجح فـي ميـزان العقـل، يرافقنـا فـي طيـات أفكارنـا، يفضـي علينـا خـزعبلات العقـد، نتيجـة تشـبث الـروح بقدريـة القـدر التـي تسـافح أحلامنـا، والتـي ترسـم لنـا مصـيراً باهتـاً، منزويـاً خلـف هـالات الشـك والـزمن. ربمـا بغفلـة، تفلـت الأمـور من قبضة أيادينا، فتودي بنا إلى حيث يرنو العدو.

هكذا يتركنا البأس نجتاح المصاعب من حيرة لعناء ومن عناء لكرب، ومن كرب لعذاب وهكذا هلم جرى تجتاحنا رعشات الخوف الرعناء التي تضفي على أفكارنا واقع الشتات، في الوقت الذي به تدفعنا إلى التشبث بصيغة الحياة بقوة، لنبقى نتأمل اليقين من قدراتنا وصبر يغطي أواوين الزمن. ما يحفز الذات على دعك الاحلام النائمة في خواطرنا لتنهض كهوامش ود على خطوط الذكرة، حيث نعود لها حين تصفى الأجواء، ننظر لها كقواقع نجاة تنتقل بنا من رجاء لرجاء، حتى تثمر الشجرة يوما من الايام.

الكل يعلم بأن الزمن كفيل بتحديد المصير، قد نقتل أو نعوق أو نفقد، ذلك الهاجس لا يفارقنا، وقد نفتقد بهجة الحياة بلحظة غفلة كحال المقاتل وحيد وخالد اللذان التحقا بعد ليلة زفافهما ولم يعودا لزوجاتهم أو كـ بحري وقاسم ووو...الخ من الذين راحوا ضحية الصراع الأزلي بين الفرس والعرب..

فنحن لازلنا نقف على شاطئ الحرب؛ لم نركب مراكبه بعد، لازالت الأمواج هادئة لم نشهد فورانها وغضبها، ولازلنا في واقعنا نبدو كأطياف مستطيره، لا نمسك بناصية الواقع ولا نهجس بفرح أو سعادة تخرق مجسات حياتنا، لقد صارت مسألة الزواج لكل فئات الشباب عقدة راسخة في فكر الشاب والشابة بعد تلك المأساة التي لمسناها، بقيت الحسرة مشتعلة في العيون، بسبب قوافل الشهداء المرثية..

الأحلام السادرة التي داعبت خيالنا في مطالع النشأة، غدت نجومًا بعيدة في فضاء المستحيل، عُقدًا في فم القدر يصعب فكها. الرغبات التي كانت تنبض بالحياة، باتت زكائباً مثقوبة أمام وطأة الواقع، والقناديل التي كانت تشع بالأمل، انطفأت في دروبٍ فقدت ملامحها.

وكأنّ المأساة تشبثت بنا، والحياة أضحت ضبابية في عيون الفتية، معتمة في أجواء الفتيات، ومفرطة في صفحات المجتمع. كل شيء تبدّل، كما تبدّل وجه الزمان، حتى صار الحلم عبئًا، والواقع سجنًا.

يا ترى؛ هل سننجو من هذه الواقعة دون أن نخلف وراءنا كوارث تفتك بالنفس والجسد؟ هل سننجو من الموت، أو العوق، أو الجنون، أو الأسر؟ تلك الكوارث التي لا تكتفي بتمزيق اللحظة، بل تظل تلاحقنا كظلٍ ثقيل، تلتصق بالفكر، وترهق الجسد وتنهش الروح.

من وجهة نظري، كان الموت أهون من العوق، فالعوق له وطأة لا تحتملها النفس مع مرور الزمن، إذ يتخلى عنك القريب، وتبقى أسيرًا لجسدٍ لا يطيعك، ونفسٍ لا تملك لها خلاصًا. أما الأسر، فهو مذلةٌ لا تنتهي، عبوديةٌ تسرق العمر، وتكسر الكبرياء. وإيران، كما عهدناها، لا تفك أسرًا إلا بعد أن تمتص دماءه، وتنهك شبابه في سجونها الكئيبة. على الرغم من أنّ الحرب وضعت أوزارها منذ عشرين عامًا، لا يزال كثير من الأسرى يقبعون خلف قضبانها، بعضهم أُفرج عنه في عام

2010، بعد اثنين وعشرين عامًا من الذل والعناء، واليوم، ونحن على أعقاب عام 2025، أُفرج عن مئة أسير، بعد أن ذاقوا مرارة الأسر، وعاشوا في أقفاص العبودية.

هذه المواجهة الأولى في حياتي، وربما تكون الأخيرة، هي الأصعب على الإطلاق في مسيرة العمر، لأنها تجربة أولى، والتجارب الأولى غالبًا ما تحمل المفاجآت، وقد تفتك بالمرء أو تمنحه ثباتًا وحكمة. قد تغرس في النفس بذور الإيثار، أو توقظ فيها نزعة الثأر والتحدي. لذلك كنت بحاجة إلى خوضها، لأقوّي عزيمتي، وأكسر حاجز الخوف الذي ظل يطوقني.

لقد بات فكري مشتتًا، لأنها أولى المغامرات، ولأنها تتسلل إلى شخصيتي كألوان عبثية تتداخل في تشكيل لوحة الإنسان، تتشكل كنهج في الفكر، تتحرك كدودة تعبث برغباتي وأحلامي، وقد تزيحها عن مواضعها التي رسمتها في لحظات النزق. تلك الأحلام التي تمنيت أن ترتقي بي إلى مصاف الأماني، مع حبيبتي المستقبلية، عبر مراحل العمر القادمة.

لكن الأحلام الآن مكبّلة بسلاسل الخوف، ونتائج المعركة تلوح في الأفق كوشاح من الصمت، تتبع مجهولًا مواربًا يعبث بظنوني كيفما شاء، يجير الأهواء والأماني داخلي نحو حالة من التسامي، لحالة من التبخر والانفلات، نتيجة مخاض عسير لولادة تورطنا بها، ولم نعد نملك سوى مواجهتها.... ذلك ما كنت اشعر به ويعتري تفكيري، بحيث لا أستكين على حجر

إلا وتحت قدمي تتحرك الاهواء، ألا وأنا أفكر بكيفية تجاوز تلك العقد الدائرة من حولي..

منذ يوم التحاقي بوحدتي، ومنذ أن تشرفت بالدخول إلى عمق الجبهة، بدأت تلك العقد تتشكل في ذهني كأنها غبار يتراكم على مرآة الروح. مذ ذاك اليوم، فقدت شهية الأحلام، وانطفأ بريق الأمل في عيني، ولم أعد أشعر بلمعان النجوم. الأجواء تلبست بسواد الظلال، والحياة تكورت في زواياها عقدًا كالعث المتجمع في أركان الملجأ وسقفه الذي بدى من زغف الشك وخيوط عناكب الحيرة، وغبار ريح الحرب.

كل تلك العناصر تجمعت تحت أسِرّة الأحلام، نتيجة تراكمات الوجع والانحلال والكسل الذي يدور بنا جراء سخط ظرفٍ موارب. باتت الحالة ترهق الذهن والجسد، خاصة حين يطول الليل بنا دون وعدٍ بطلوع الفجر.

المعركة، بالنسبة لي، ليست مجرد مواجهة؛ إنها اصطدامٌ من نوع خاص، تحمل في طياتها مفاهيم ترتبط بالإنسان والإنسانية، وتختزن رغبات وأحلامًا تناقض بلادة الواقع الذي نعيشه. رغم أن هذه الحالة تعري النفس من البهجة، إلا أنها تظل عصفًا مؤقتًا، حتى يكف الزمن عن نثر جحوده، وحتى ينفذ المستحيل من قوس الحياة، وتعود الشمس لتمنحنا دفئها، وتطهرنا من هواجسنا.

إنها فترة طويلة، ثقيلة على من تنقصه الخبرة والتجربة من الثبات لافتقار النفس إلى الثقة والقدرة. لا شك أنها ستزيدني

هوائًا وتشنجًا وعقدًا وعصبية، قبل أن أدخل مضمار التجربة فعليًا، بشيء من الضعف والكثير من الصبر.

دائمًا ما تكون الخطوة الأولى هي العقدة الأكبر أمام الانطلاق. نسميها في العامية "كسرة عظم"، نكسر بها مرآة الوجل التي تشوه صورنا وتمتص شجاعتنا، لنواجه ذلك الماجن الرابض في الذهن والقلب، كأنه لصٌّ يحاول سلب ومضة الأمل، ويغرز سموم الخوف في أفكارنا قبل المواجهة.

الخطوة الجريئة هي مفتاح الأبواب المؤصدة أمام أفنان الحياة، وهي التي تكشف ما خفي من الصور أمام الذات. لا شك أنها ستكون كسرًا حقيقيًا لحاجز الرهبة والرعب الذي يثقل كاهل القلب، وتشكل وجهًا من أوجه الوجس. تلك الخطوة سترفع وشاح الغمام عن حاجب البصر، وتغمر الروح بطمأنينة وصبر وشجاعة، تكون درعًا في وجه التجرد، وعصفًا في وجه اليأس، حين تتضح لنا بانوراما المعركة بكل تجلياتها.

والتجربة ليست مجرد حدث عابر، بل هي فعلٌ جوهري لكسر الجمود وتحرير الفكر من قيوده المعيقة. إنها آلة عزفٍ تطرب الذات الأسيرة، وتدفعها نحو صيرورة جديدة تمنحها فرصة الانعتاق من أسر الضعف والهوان، وتلبسها لبد الثقة بدل أسمال الانكسار التي أثقلت كاهلها.

نعم، أنا محاطٌ بزملاء من مراتب وضباط ذوي خبرة ميدانية راسخة، يمكنني أن أستقي منهم العزم والثبات. كثير منهم خاض غمار المعارك، وارتوى من ميادين القتال، وواجه

شرارة الحرب في عمق الأراضي الإيرانية. ربضوا طويلًا على الجبهات المتقدة، فاستعاروا من النار شراستها، ومن الحديد صلابته، ومن الأرض طيبها وكافورها، ومن البارود فظاظته وهمجيته.

هؤلاء الأشاوس كانت آخر مشاركاتهم في معركة شرق البصرة، تلك الملحمة التي أجبروا فيها القوات الإيرانية على التقهقر والتراجع، بعد محاولة يائسة لاختراق الحدود الدولية والتوغل في العمق العراقي.

لا أنسى مشهدًا محفورًا في الذاكرة، لجندي من المشاة في شرق البصرة، حين ارتقى سنم الساتر الحدودي الرئيسي، الذي بلغ ارتفاعه أربعة أمتار، ممسكًا بذراعين من هيكل عظمي لأحد الشهداء. كان يلوّح بهما للعدو، مرسلًا رسالة نصر وتحذير: "إن اقتربتم، فمصيركم سيكون كهذه الهياكل!" رغم أننا لا نعلم إن كانت تلك الهياكل لجنودنا أم لجنود العدو، بسبب التلاحم العنيف بالسلاح الأبيض، إلا أن المشهد كان دالًا على اختلاط الحابل بالنابل، وعلى كثرة القتلى من الطرفين، مع يقيننا بأن قتلى العدو فاقوا عدد شهدائنا.

صار ذلك الجندي بطلًا في ذهني، وهو يلوّح بذراعي الهيكل، متحديًا العدو، مصغرًا من شأنهم، مستهترًا بقوتهم. وحين شعر بأزيز الرصاص يتخطاه، هوى بنفسه إلى وسط الخندق، خوفًا من رصاصة غادرة. ذاك المشهد، الذي يصعب تكراره أو تصديقه، كان في قمة الجنون والصلف والتحدي. تصرفه

تجاوز حدود الخوف، واستهزأ بالحياة والموت معًا. لقد بلغ به اليأس حدًّا جعله يتسامى مع الخوف، يرهب العدو بشجاعةٍ مجنونة، ويمنح زملاءه دفقة من الثبات عند تجدد النزال.

لقد قضى ثلاث سنوات من المد والجزر في تلاحمه مع العدو، دون أن يصل إلى نهاية لهذا الصراع الأهوج، دون أن يُفرج قيد شبابه المبهم. بسلوكه الأرعن، صبّ جام حيرته في سلة عنائي، وجعلني أتأمل شكل المستحيل، لونه، طعمه، أبعاده، ومكوناته. بدا لي كآلة بشرية، كروبوت إلكتروني، يقارع الزمن دون مشاعر، يتجاوز حدود الخوف، ويتسامى به ليصنع من الجنون بطولة، ومن التحدي رسالة، ومن اليأس وقودًا للثبات.

لقد جعلني أتنبأ شكل وضراوة المعركة القادمة مع جنود من هذا النوع وبهذا البأس بعد أن دعسوا على خط الموت ولم تغتابهم رجفة، ولم يهابوا عناوين الوجل والقدر بأشكالها.

يا ترى! إلى أي مدى وصل ذلك الجندي من المغالاة واللامبالاة في درء الخطر على نفسه؟... ترى؛ هل فكر بأهله؟ بحبيبته؟ وهل له حبيبة يحن لها؟ أو.....الخ من أسئلة صارت تتقلب وتتجول في ذهني دون أن تختمر، دون إنارة من صدف الجنون تشف أجوبتها.

أظن من هاجه الشوق لن يتجرأ أن يخسر ذاته بمجازفة أحسبها رعناء كمجازفة جندي المشاة. يا ترى؛ هل تلك التصرفات نابعة من مصدر شجاعة تحلى بها، أم من عقدة جنون تجذرت

فـي ذهنـه جـراء تـراكم عـث اليـأس فـي مخيخـه، فـأنبرت علـى شـكل هلوسـة أمـام المصـير المجهـول الـذي طـال زمنـه؟ أم جـراء جبن وحيرة جزلت شخصيته؟

لكنـي كنـت مقتنعـا بـأن التجربـة والممارسـة والمـرارة وكثـرة العقد التـي مارسـها جردتـه مـن إنسـانيته، جزلـت عنـه الخـوف، جنبتـه حـواجز الضـعف، صـيرته كآلـة لا يشـعر بـالخطورة ولا بجلـد المصـير ولا بهـدير المـدافع.. قـد يكـون مسـخ تمامـا مـن إنسـانيته فتصـرف بصـفته الحيوانيـة كـالكلاب والقطـط فـي دفاعهـا عـن نفسـها. قـد يعـيش بقالـب أنسـان، ربمـا يكـون مجـردا مـن الإنسانية.....

الأسـد لـن يكـون أسـدا وحشـيا ضـاريا لـولا قوتـه وشـدة بأسـه، فأصـل جسـارته مغـروس كصـفة فـي طبعـه وشـكله المرعـب ومخالبـه وقـوة أنيابـه، ولـن يكـن جسـورا فـي مقارعـة فرائسـه لـولا التجـارب المريـرة التـي أضـافت علـى طبعـه الشراسـة والخبـرة فـي ممارسـة فـن الصـيد والقتـل معـا.... لـذا تجـد المجرمـون الحقيقيـون يقتلـون الأبريـاء بـدم بـارد مقابـل الحصـول علـى مبـالغ تافهـة وكـأنهم دعسـوا علـى حشـرة. وأظـن هـؤلاء تنقصـهم مـا يحصـنون بـه أنفسـهم مـن ثقافـة ودين وإيمـان وإنسـانية بشـكل عـام، أو أحـدى تلـك الخـواص التـي تجنـبهم العبـث بحيـاة الآخـرين، فيعوضوا نقصهم بشرر أفعالهم الإجرامية...

أبـو طبـر الـذي ظهـر فـي بغـداد فـي بدايـة سـبعينيات القـرن المنصـرم (1972) والـذي كـان يـتهجم علـى العوائـل بحيـث يقتـل

كل من يصادفه شيخا كان أو طفلا أو امرأة أو حيوانا لمجرد حب القتل من أجل السرقة، ولم يكن غبيا أو تافها، بل كان متعلما وداركا أمور الدنيا بشكل غريب، فاهما لمجريات الحياة والدين، بحيث أنه من الممكن أن يتوسع في نقاشه بعمق لما يدور حوله من الأحداث، له اطلاع عام في جميع المجالات. أنما كان ينقصه الإيمان والورع والوازع الديني. ينقصه الحب والأدراك الحسي وعقاب الذات ومحاسبتها. لذا نشر الفوضى في بغداد وجنى على عددا كبيرا من العوائل لمجرد حب القتل، والاستمتاع بمشاهدة الدم. بئس الطبع وبئس المصير.

أما بالنسبة لي؛ لازلت أرنبا لم أخض تجارب المعارك، لم أدخل في صراع القتال المباشر، وتلك هي العقدة الحقيقية التي سيطرت على ذهني ولازمتني خلال مسار الطريق، يا ترى كيف سأقتل إنسانا؟...

الحالة التي وصل لها جندي المشاة ترفعت بذاته عن صفة الجبن والإنسانية، عجنت في ذهنه عناصر الرعنة والشجاعة بالهلوسة والتحدي والخبرة التي تنقصني، فخرج وفي ذهنه مزيج خميرة من المجازفة والصلابة الذائبة بخمرة الكأس.. تلك الحالة أحالت الصعاب أمامه لسبيلٍ سهلٍ، ليسر وثراء النفس، أذابت العقد والخشونة من الحالة، بحيث بات لا يشعر بالخطورة من حوله أبدا، حالة صعبة لن يرتقي لها كائن من كان، إلا من تشبع بؤسا وهوانا ومرارة وتجاربا في حياته.

كنت أحسده على مقته، على الوحشية التي تمثل بها، على الجنون الذي ركب شخصه والشراسة الراسخة في طبعه والموصولة في سلوكه. أحيانا الإنسان يحتاج أن يكون وحشيا في مواقف لا تقبل الجدل لينال حقه. لذا كان لا يحترم ذلك الانسان الذي حذفته الحياة من دستورها؛ إلا في حالات الإنسانية خارج حدود الجبهة.

5- الطفولة

حين يشتد بي الظرف، ترتفع درجة الحرج والقلق، فأعود إلى دكة الذاكرة، أتصفح دفتر الذكريات القديمة. يتشتت ذهني بين ولاءات الأمس التي تتبع القلب، وصخب رنين الغد وسره وقدره، في ظل اضطراب يلفني كضباب كثيف. أجدني أتشبث بمراحل الطفولة والمراهقة، أربط وجودي بتلك الألواح الحساسة من العمر، لأعيش لحظة صفاء في أجوائها، ناسياً الغمامة التي ترفرف فوق رؤوسنا.

ربما هو هروب من الواقع، أو رفض لخوض جدل لا يطابق الحقيقة. وربما هي معمعة أترنح فيها دون أن أدرك حيثياتها. كل شيء جائز. وقد تكون حالة صحية، تجعلني متمسكًا بمبادئي وقيمي التي تربيت عليها، لأتشبث بجذوري ووطني.

يا ترى، هل لأنها كانت مرحلة نزوات ومراهقة ونزاهة وبراءة؟ أم لصفاء تلك المرحلة، والمرحمة التي تدفئ أجواءها، فخلت قعورها وسفوحها وقممها من العقد؟ لا أدري كيف أفسر الحالة التي كنت عليها، لكني أهجس بها كمرحلة هدوء، رسمت لي لوحة صفاء مشبعة بالبراءة والحب والحنين، كألواح الطاقة الشمسية، ترفقني، تمدني بطاقة دائمة، تختلف كليًا عن ألواح عمري اللاحقة المصنوعة من كاربون العقد، المسجرة بالبؤس والعناء.

تلك الألواح تدخلني في بوتقة تفكير لا أستطيع تجاوز حدها، إلا وأنا مكبل بأحكام وعراقيل تمنع عني الهواء والأوكسجين. تشكل ذاتي كغموض لا أعرف صفاته، ولا أملك مفاتيحه.

مرحلة الطفولة كانت سلسة كنسيمٍ عابر، تركت على رفوف السنين نماذج من التحف، منحت خصوصيتي الهادئة والمتأملة عمقًا فريدًا، وجعلت الأحلام ترتع في حضن البراءة، كطفلٍ ومراهقٍ يتلمس ملامح الحياة. منها استقيت العاطفة والعفة وصفاء الروح، كمن يغترف من نبعٍ صافٍ في جب الحياة الطبيعية، فغدوت أُسافر بخيالي عبر الجفون الناعسة، أسبح في أجواء الحياة والمستقبل.

ذلك الرقي الذي تميزت به طفولتي، كان بفعل الترفع عن الذات، وصفاء الأجواء، وراحة البال التي غمرت تلك المرحلة، راقت لي كصحن فواكهٍ موسمية، تفكهت بها على ما أنا عليه، حتى تلونت الأحلام بألوان الطيف والصبح البهيج. جُمعت صفاتي في كيس من خيش المحبة، ومهادنة الحياة، ونكران الذات، فتهيأت لي أجواء المودة والمروءة.

مدرسة الشروق... إشراقة الذاكرة

لا تزال المواقف المؤثرة من مرحلة الطفولة، خاصة أيام الدراسة الابتدائية، تسكن ذاكرتي. كنت تلميذًا في مدرسة الشروق الابتدائية، برفقة زملاء من أبناء محلتنا: علي، وعدنان، وشهاب، وعادل، وسيروان، وآخرين من الأحياء القريبة: سلام، ورائد، وتحسين، وأحمد، وشلة من الأصدقاء

الـذين ارتبطـت بهـم بعلاقـة حميميـة اسـتمرت حتـى ارتـديت البدلـة العسكرية.

مدرسـة الشـروق... مـا أجمـل اسـمها وموقعهـا وطلتهـا فـي قلـب المدينـة! كانـت بحـق تفـتح أبـواب الإشـراق فـي ذهـن التلميـذ، وتؤلـف بـين القلـوب، وتـزرع الأحـلام فـي دروبنـا بأسـاتذتها وإدارتها.

لكـن للـزمن رأيًـا آخـر... تشـتتنا، وتـاه بنـا المسـير نحـو الفرقـة وضـياع الهويـة. أضـحينا، بحكـم القـدر، كالـدبيب نلهـث فـي البقـاع، نتبـع الظـن دون رغبـة، دون تعفـف أو رقـي. هُجِـر مـن هُجِـر، وهـاجر مـن هـاجر، ومـن ذهـب ولـم يعـد، ومـن جنـت عليـه الظـروف فبـات يتسـكع ذلـيلاً فـي طرقـات الهـوان. مصـائر شـتى صـبّت جـام غضـبها علينـا، جـراء تخـبط قـادة البلـد، فمضـينا فـي دروبٍ لا عـودة منهـا، جنحـت بنـا ظـروفٌ قسـرية: اقتصـادية، وسياسية، وطائفية، جعلتنا نقرف نتن الحياة.

جرس الطفولة... ونداء الباعة

كنـا ننتظـر الفرصـة بـين الحصـص لنمـرح، نرتـع، ننتظـر رنـين الجـرس الأخيـر لنهـرع إلـى البوابـة كفيـض الـدبابير، نلتـف حـول عربـات الباعـة الجوالـة، نلـتهم مـا يُبـاع مـن اللبلبـي بـإدارة أبـو سـميرة، أو الشـلغم والبـاقلاء تحـت إشـراف كـريم أبـو يوسـف، أو نحوم حول صينية المدقوقة، حلاوة التمر.

كـان هـؤلاء الباعـة يرتزقـون مـن عربـاتهم، ينتظـرون بشـغف جـرس نهايـة الـدوام ليصـرفوا منتجـاتهم علـى جيـوب التلاميـذ، التـي غالبًـا مـا كانـت خاويـة، نتيجـة الفقـر السـائد بـين عامـة النـاس. قلـةٌ فقـط مـن المتعففـين كـانوا يملكـون قـدرة شـرائية، مـن الطبقـة الوسـطى، فـي ظـل حكومـاتٍ جـائرة تعاقبـت علـى الحكـم، لـم تهـتم بأُسـس الأسـر قـدر اهتمامهـا بالكراسـي التـي تجلـس عليهـا. فأيـة هـزة صـغيرة كانـت كفيلـة بإسـقاط أوراق شـجيراتهم المصـفرة، التي لا تقوى على حماية رؤوسهم.

بين اللبلبي والباقلاء... حكاية رجلين

كـان أبـو سـميرة يصـف عربتـه علـى يمـين بوابـة المدرسـة، يقابلـه السـيد كـريم علـى يسـارها، وكأنهمـا حارسـان لبوابـة الطفولـة. أبـو سـميرة، رجـل أربعينـي مـرح، يتـدلى مـن جسـده كـرش كبيـر، يرتـدي دشداشـة مقلمـة، يبتسـم ابتسـامة مصـفرة تحـيط بهـا نظـراتٌ موشّـحة بشـظف الألـم، تكحـل جفنيـه ظـلال مـن الشـجن، وتخفـق عيناه بسرٍ دائب، بسواد العشق الذي يفضح نجواه.

كـان عاشـقًا عـذريًا للمطربـة سـميرة توفيـق، عشـقًا مريضًـا أغـواه، يسـكنه كمـا تسـكن الزهـرة المـاء، وكمـا يشـتاق الطيـر للشـجر. صـورها معلقـة علـى جـدران بيتـه، تـزين عربتـه، وتعـيش معـه فـي ثنايـا روحـه. كـان يراهـا فـي كـل شـيء: فـي قـدر اللبلبـي، فـي قـارورة الليمـون، فـي دخـان الطـبخ، بـل حتـى فـي لحظـات خلوتـه مـع زوجتـه. كانـت هلوسـاته بهـا تمـلأ يومـه، يسـمعها تقـول لـه: "لبيك، أنا سميرة بين يديك."

أما كريم أبو يوسف، فكان نقيضه تمامًا. رجل رزين، نحيف، أسمر، قصير القامة، أصلع إلا من حواف رأسه الأشيب. هادئ المزاج، قليل الحديث، يرتدي دومًا قميصًا مقلّمًا وبنطالًا رصاصيًا مكويًا، وحذاءً أسودًا يلمع من شدة العناية. هندامه أنيق، وقيافته تدل على رجلٍ عصفت به الحياة، فصقلته القسوة..... لكن كريم كان ساحرًا في طبخه، لا يُضاهى. حبة الباقلاء التي يطهوها تذوب في الفم لطراوتها، والشلغم هشٌ بنكهة غريبة ولون داكن جذاب، يصفّها حول قدره كأنها زينة مهرجان. رائحة النعناع المبروش فوق الباقلاء تفوح كعطرٍ يوقظ الحواس، تشهق بها اللذة، وتذوب كقطعة ثلج على اللسان.

وبينهما، كان يجلس فراش المدرسة، رجل طاعن في السن، يضع صينية المدقوقة أمامه: تمر زهدي مدقوق بالجاون، ممزوج بالسمسم والزيت، يقطعها مربعات صغيرة، يبيعها ليعين نفسه على راتبه البسيط. كانت لذيذة، ليس فقط لطعمها، بل لإتقانه صنعها، وكأنها قطعة من ذاكرة الطفولة.

ذكرياتٌ خالدة تطفو على سطح الذهن مع دوران عجلات العربة، وهي تنقلنا لموقعٍنا الجديد المجهول، كأنها تهمس لنا بماضٍ لا يُنسى، وتعيد رسم مسارنا وغايتنا. لحظاتٌ تمرق في الذهن، تعيدني إلى واقع طفولتي، حين كنا نخرج من مدرسة الشروق، حقائبنا على ظهورنا، وآخرون يسحبونها على عجلاتها لكثرة محتواها، بينما أبناء المساكين كانوا يحملون

كتبهم في زكائب من خيش الكتان، كأنهم يحملون أحلامهم في أكياسٍ من الصبر.

كنا نلهث شوقًا لسندويشات اللبلبي والصمون، حيث تُعبّأ الصمونة بالحمص المطبوخ، وتُرش عليها قطرات من عصير الليمون، برفقة قارورة بيبسي باردة، تُنعش أرواحنا قبل أن نصل إلى البيت. لم تكن مجرد وجبة، بل طقسٌ يومي، عادةٌ تجاوزت الجوع والشبع، أصبحت جزءًا من ذاكرة الطريق، من لحظة الجوع التي تلامس حدود الطاقة، فتسعفنا تلك الصمونة حتى نبلغ عتبة البيت.

كنا نمرح في الطريق، نضحك، نعيد سرد مجريات اليوم الدراسي، نتهكم على من نال التوبيخ أو الضرب، ونشيد بمن حظي بالتكريم والتبجيل. لكننا كنا نرتعب من الأستاذ صفاء هاشم، معلم الإنجليزية، ومن الأستاذ شدّاد، معلم الرياضيات، لقسوة تعاملهم التي كانت تُبرر بالحرص الزائد. كنا نُعاقب لمجرد سهوٍ أو لعبٍ أو تكاسل، أو حتى حين تسرقنا طفولتنا إلى جهةٍ أخرى.

لن أنسى يوم أن صفعني الأستاذ صفاء، فقط لأنه رآني واقفًا أمام باب البيت في يوم الجمعة دون أن أحمل كتابًا في يدي! ولا أنسى قسوة الأستاذ شدّاد، حين ركل طفلًا بقدمه لأنه انحنى ليلتقط مبراته التي سقطت من الطاولة. كنا حينها أطفالًا في الصف الثالث الابتدائي، لا يتجاوز عمرنا الثماني سنوات، نحمل في قلوبنا براءةً لا تستحق كل ذلك العنف..

رغم قسوة أسلوبهم، غرسوا فينا احترام العلم، والانضباط، والتربية. علمونا حب الوطن، ومراعاة الوالدين، واحترام الزمن، والاهتمام بالكتاب وبأنفسنا، والإنصات للآخرين، خاصة كبار السن.

في طريق عودتنا إلى البيت، كنا نسلك الوادي تحت جسر سكة الحديد المتجهة إلى بغداد، خصوصًا عند مرور القطار الذي غالبًا ما يتزامن مع نهاية الدوام الرسمي. كنت أشعر بسعادة غامرة حين أسمع زئيره من بعيد، كأنه يحذر من تجاهل خطره. في صوته لغز الحركة، وفي قدومه حيوية وسر الحياة. لم يكن مجرد صوت عابر، بل نداء للأمل، وإشارة لتجدد المشهد وتغير الظرف. وحين يغادر بزئيره المدوي، يتركنا نتأمل الغد، ذلك التنين الحديدي المرعب يسير بثبات لا يحيد عن طريقه وعزمه قيد أنملة.

كنا نعبر تحت الجسر، متجاوزين سواقي المياه الآسنة القادمة من مجاري أزقة محلة الجماهير والعروبة والشهداء، قبل أن ترتبط بمياه محلة الطليعة والوحدة، لتصب قرفها في نهر ديالى. وأحيانًا، حين يفيض الوادي بمياه الأمطار، نعبر من فوق الجسر. تتجمع مياه الأمطار من وديان تلول وادي العوسج الشرقية، وتنحدر بشدة، مجرفة معها القمامة والمياه الآسنة والعلب الفارغة وأكياس النايلون وأكوام الزبل، فتغسل الوادي وتطهره من رجس البشر، ليظهر بحلة جديدة مريحة.

لن أنسى ذلك اليوم حين حمل السيل أخشابًا وحصران خوص كانت موضوعة في حوض الوادي للتجارة، فاصطدمت بأعمدة القنطرة التي تتوسط المدينة، وشكلت سدًا منع جريان السيل، فارتفع منسوب المياه حتى غمرت أجزاء من البيوت المبنية على حواف الوادي. لم نشعر بالخطر إلا بعد منتصف الليل، حين طرق أحدهم باب الدار بقوة، وما إن فتحناه حتى دخلت المياه إلى البيت بمستوى الركب. لم نعرف السبب إلا صباح اليوم التالي، حيث شكك البعض بانهيار سد دربنديخان.

كنا نتبارى فوق الجسر، نقفز على خشباته المستعرضة من خشب الطوروس العريض، المتراصة بمسافة قدم بين كل خشبة وأخرى تحت سكة القطار، داعين الله أن يجنبنا السقوط من بين الفواصل. كانت أجسادنا النحيفة كافية للانزلاق، لكننا تمسكنا بالأخشاب بتركيز وعزم صبياني لا يلين. ومع ذلك، لا نعلم كيف نجا عصام رمو من الموت حين سقط في قاع الوادي ولم يصب إلا ببعض الرضوض.

كنا نجد في تبارينا فوق الجسر متعة تغنينا عن فكرة الخطورة، وأحيانًا ننظر من خلال الفواصل نحو الأسفل، فيبهرنا ارتفاع الجسر عن أخاديد الوادي السحيقة، فنشعر بخوف يقيد حركاتنا. كان الجسر بارتفاع 40 قدمًا. تأخذنا براءتنا فنرمي القصاصات الورقية من فوقه، فتسقط بفعل النسائم بعيدًا في مجرى السيل. كثيرًا ما استهوتنا صناعة الطائرات الورقية، نقذفها من فوق الجسر، فتهبط مع جريان السيل إلى مصبها، نستمتع بتلك الألعاب، خاصة أيام فيضانه...

كم تأملنا ونحن صغار أن نصنع طائرات حقيقية، أن نعمر الوطن كما كان يخبرنا المعلم، حين زرع فينا تلك الرغبة النبيلة. لكننا كبرنا وكبر معنا المستحيل، تمدد تحت جنح المستعمر، صار شاخصًا أمام أعيننا، سدًا لعزمنا، وعائقًا لطموحنا. كبرنا ونحن مقيدون بالعُقد، أضحينا كالفئران نقرض تلك الخيوط الملتفة حول رقابنا، دون أن نفلح في قطعها. أشعر بها خيوطًا لزجة، كلما حاولنا تمزيقها، عادت والتصقت بأشد مما كانت عليه.

مثلما للذكريات جذور في النفس، أشعر أن للورق جذورًا في ذاكرتي، يرافقني كصديق حميم، يدون مراحل حياتي، يشاركني أفراحي وأحزاني. إنه عالمي المفضل، ألجأ إليه كلما شعرت بالوحدة، أرتع في حدائقه، أرسم وجه طفل لألعب، أو وجه شيخ لأسترق الحكمة، أو وجه امرأة لأزرع في شرودي بذور الحب والراحة والأمل. إنه عالم مجنون، وأنا أحب الجنون.

أشعر أني فقدت تلك الأيام الخوالي، تركتها أمانة على ظهر الورق. أصبحت حياتنا مجرد خيال يموه في بحر الصفحات، حياة بيضاء خالية من المتعة والضحكة التي كنت أترجاها في طفولتي. كأنها صفحات طُويت إلى الأبد، لن تُجدد نفسها. ذلك الإحساس يأتيني بسبب ضياع فترة الشباب تحت وطأة الحرب اللعينة.

فالماضي يُنقّي المستقبل من شوائبه، يغيث أحلامنا، ولهذا أشعر بالحزن لمفارقة تلك المحطات من حياتي. دائمًا ما يشدني الحنين إليه حين يضيق صدري، لأستنبط منه أضواء سعيي وخياراتي. أصبحت كرحّال يمتطي حصان الذاكرة، يجتاز فلاة الماضي، يستطلع تأملاته ومستقبله، يكتشف في ثراه نظرة عطف، أو ألفة صديق، أو فطرة محبة تقوده إلى فتاة أحلامه. بإشعاعه أهجس ذاتي، أتفرّس الوجوه المحيطة بي، أقرأ أسرارها ونواياها، ما يجعلني أكثر حذرًا حين أخطو في الطريق. إنها الخبرة والدراية... إنها المرحلة التي تعبّر عن الدلالة التي نبحث عنها بين مواقف الحياة، حيث كلما كبر العمر، دعس الزمن على الذاكرة، ففاح عبقها.

ربما تلك الذكريات لا تشدني إلى الوطن فحسب، بل تجعلني أكثر التصاقًا به وحرصًا عليه. لذا من الضروري أن يكون المسؤول السياسي قد عاش طفولته في حضن البلد، كي لا يفرّط بخرز العقد الذي يرتديه. فنحن لا نريد قائد ضرورة، بل قائد صيرورة، لا يُمَيّر اسمه على الشعب والتاريخ، بل يسير معهم، بينهم، ومن أجلهم.

ما إن غادرنا خلفيات الفرقة، حتى بدأ رتلنا الطويل يتلوى في الطرق الصحراوية كأفعى الأناكوندا، يشق طريقه نحو الجنوب، حيث قرى الزريجي المبعثرة على ضفاف النهر. هناك، بيوتات ممتدة على الطريق من اللِبن وصرايف من القصب وسعف النخيل، تقف كأطياف الماضي، تسكنها قلة من

المـــزارعين ومرابـــي الجـــاموس، يبيعـــون الخـــاثر والأجبـــان والقيمر، ذلك الذهب الأبيض الذي لا يُقاوم.

المنطقـة بـدت شـبه مهجـورة منـذ معركـة شـرق البصـرة الأولـى، ولـم يبـق فيهـا سـوى مـن تعلـق رزقـه بقوافـل الجـيش المـارة. تـرى جواميسـهم جاثمـة فـي ميـاه النهـر، تتحـدى سـخونة الأجـواء، بينمـا وجـوه أصـحابها تكسـوها هـالات البـؤس والكـدر، كـأنهم رُحّـلٌ مـن زمن آخر، أثقلهم الفقر، وغابت عنهم يد الدولة.

لا كهربـــاء، لا مـــاء عـــذب، لا أدوات ترفيهيـــة أو صـــحية، ولا حتـــى نافـــذة علـــى العـــالم. بيوتـــاتهم واهيـــة، وأجســـادهم منهكـــة، وأحلامهـــم معلقـــة علـــى نهـــر الزريجـــي، ذلـــك الأخـــدود الضـــيق بعـــرض عشـــرة أمتـــار، الـــذي بالكـــاد يتحـــرك، ميـــتٌ حـــي، تغمـــره الطحالـــب والأوســـاخ، وتحـــيط بـــه ســـيقان القصـــب والبـــردي كـــأطواق منسـية. يشـربون مـن مائـه بعـد أن يُشـخل بأقمشـة نظيفـة ويُغلـى حتـى الغليـان، ثـم يُسـتخدم فـي الطـبخ والشـرب وصـناعة القيمر والغسيل، وكأنهم في طقس تطهيري يومي.

لحظة من النعيم وسط العناء

خـلال سـيرنا، توقفنـا تحـت ظـلال نخيـل وارفـة، حيـث جلسـت عشـر نسـوة يفرشـن الأرض ببسـط مـن خصـف النخيـل، يعرضـن منتجـاتهن مـن القيمـر والخـاثر والجـبن، مـع أقـراص الخبـز السـاخن. ومـا إن توقفـت عجلاتنـا، حتـى انقضضـنا علـى صـوانيهن كـذباب جـائع، نشـتري كـل مـا عرضـن، وكأننـا نلـتهم لحظة من الجنة وسط جحيم الانتظار.

كان طعم القيمر يرق على اللسان، يوقظ الحنين، ويشعل الرغبة في النفس الشبقة. فرصة نطت من سقف الخيال إلى واقع الجوع الذي ألم بنا، فاستغللناها لننسى عبء السلاح والعتاد، ونلهي أنفسنا عن احتمالية المواجهة المجهولة.

منظر القيمر الأبيض وهو يفترش الصواني، والجبن الطري، والزبد الطافح، منظر يغري العين ويعصر المعدة. خاصة حين يُقطع القيمر كشرائح، ويُعبأ بصمونة طرية، وتُضاف إليه ملعقة عسل، فينتشي الطعم بالحلاوة والعذوبة، يأزز الرغبة في العيون والقلوب، لأنك لن تشبع ولو ألهمت الصينية كلها. ولن يدرك لذته إلا من جربه، وتذوقه، واستلذ به من قبل.

لم نتأخر في نقطة توقفنا، على قدر بضع دقائق صرفناها على بطوننا تحرك الرتل إلى وجهة الهدف. مضينا نلتهم الطريق نحو موقعنا الجديد في قاطع الفيلق الرابع... أخذنا الحديث بين شجون الكلمة والطرفة. مع مضغ القيمر كنا نعلس به ملل الطريق ببطء دوران عجلات سيرنا، حيث بين الحين والحين تعطل لنا عجلة لاستهلاكها أو ضعف إدامتها، أو لقلة خبرة سواقيها. أو تلف إطار ما نتيجة انتهاء العمر الافتراضي للإطار المستعمل، أو ضعف الهواء المعبأ، وهكذا هلم جرى.

على امتداد الطريق، كان يجلس إلى جانبي النائب الضابط ضاحي، برفقة السائق جفات. ضاحي، رجل أربعيني نحيل الجسد، ينتمي لقضاء الشطرة في محافظة القادسية، تطوع في السلك العسكري منذ شبابه، يتميز بذكاء حاد وخبرة ميدانية

وروح مرحة لاذعة. أما جفات، فكان شابًا أميًا من قرى العمارة، نحيلًا إلى حد الهيكل العظمي، هادئ الطباع، غشيماً، أقرب إلى المسطول من السكران، لا يفقه من الدنيا إلا القليل، وقد نُسب لوحدتنا مؤخرًا كسائق لعجلة "كاز 66".

طوال الطريق، كان جفات يعت في سياقة العجلة، تغوص بنا في الحفر والسواقي، وتغرز في الرمال، دون أن يفقه كيف يتعامل معها. ضاحي، بطريقته الساخرة، قال له ضاحكًا:...

- يا ابني، نحن نود أن نموت شهداء لا في حادث بعجلتك! كلما صادفت حفرة، انكفأت بها، جعلت العجلة تغوص في الرمال. صحيح من سماك جفات (كفات)، اسم على مسمى! الله يرحم والديك، راعينا، لا نحتمل هزات جديدة!.

ثم أردف ضاحي بنكتة لتلطيف الأجواء:...

- يُروى أن ضابطًا قاسيًا وقف أمام جندي في الاستعراض وسأله: – ما اسمك؟ – عبدالله، سيدي. – وما الذي تمسكه بيدك؟ – بندقيتي، سيدي. فرد الضابط بعصبية: – غلط! قل: حبيبتي، زوجتي، شرفي. ثم انتقل للجندي التالي وسأله: – ما اسمك؟ – جاسم، سيدي. – وما الذي تمسكه بيدك؟ – شرف عبدالله، سيدي. زوجة عبدالله، سيدي، هههههههههه.

كان ضاحي قد ابتاع لجفات لفّة من القيمر الملفوف بالخبز، وبينما كان يأكلها أثناء القيادة، غاصت العجلة في إحدى السواقي، فانزاحت يده عن فمه إلى وجهه، وتلطخ وجهه بالقيمر والمربى! علت ضحكاتنا، وهو أيضًا بات يقهقه على حاله، فكررت عليه عبارة ضاحي:.....

- قلنا لك نود أن نصل بسلام، لا أن نُقتل في عجلتك!

ثم عقبت عليه بنكتة أخرى:....

- منتسب جديد للجيش، سأله الضابط: – لو هجم عليك اثنان، ماذا تفعل؟ – أعالجهم بمسدسي، سيدي. – وإن كانوا عشرة؟ – أبيدهم ببندقيتي، سيدي. – وإن كانوا مئة؟ – أستخدم مدفع رشاش، سيدي. – وإن كانوا ألفًا؟ – أهرب، سيدي. فوبخه الضابط: – لا تقل ذلك، الجبان فقط يهرب! فرد عليه المنتسب: – وهل تود أن أدافع عن الوطن وحيدًا وعبود نائم عند زوجته؟!. هههههه.

في خضم الأوامر العسكرية القاسية، كانت النكتة طوق نجاة، تذيب جليد الروتين، وتمنح الروح متنفسًا. فالحياة العسكرية عقدة ليس لها رأس، بقدر ما ترهق الجسد، تزهق الذهن، وتدفع الفرد إلى عالم الهوس، حيث لا سبيل للثبات إلا بالرفقة والطرافة.

كنت أرى النفس العسكرية كقطعة قماش خام، تبتل بندى الأثير، ويجب أن تبقى رطبة لتخفف ثقل الأوامر وغبار الظروف. بحدة الطرافة، ولذعة النكتة، تمكنا من اجتياز الطريق دون أن تنحرف أفكارنا نحو المصير المجهول. خرجت التعابير عفوية، شفافة، تسحق الجمود، وتغمرنا بضحكة صافية، ونية سليمة.

ونحن نقطع الطريق صرنا نكرر لجفات عبارات هووووب..STOP.... ستووب! - في كل دوار أو منخفض، كإشارات تحذيرية، تنبهه من أخطائه وسياقته الحديثة. هكذا تحملناه، وتحمل هزارنا، حتى وصلنا إلى سيطرة العمارة عند الخامسة عصرًا، مرهقين من الطريق وما رافقه، لكن محملين بضحكات خففت عنا وطأة الرحلة.

الفصل الثاني

1- ارهاصات المقاتل قبل الحرب

أخيـرًا بلغنـا سـيطرة جبهـة الطيـب، حيـث تجمعـت عجـلات الرعائـل خلـف نقطـة التفتـيش، وعلـى بعـد كيلـومتر واحـد منهـا، توزعـت الرعائـل كـلٌ فـي جانـبٍ معـين تفاديًـا للتجمعـات التـي يبحث عنها العدو.

كانـت حـرارة العجلـة التـي يقودهـا الجنـدي جفـات قـد ارتفعـت بشـكل مقلـق. فقادهـا نحـو مقطـورة المـاء الموضـوعة فـي العـراء، علـى جانـب الطريـق الترابـي المتجـه إلـى عمـق الجبهـة، خلـف السـيطرة الرئيسـية بمسـافة كيلـومتر. حـاول تبريـد المحـرك وتغييـر مـاء الكـابريتر، لكـن قلـة خبرتـه فـي صـيانة العجـلات خانتـه. فـتح غطـاء الحـوض دون إدراك لخطـورة مـا يفعـل، فانـدفع المـاء المغلـي بقـوة، ليصـيب وجهـه وسـاعديه بحـروق مـن الدرجـة الثالثـة، امتـدت إلـى بطنـه وكفيـه، تاركـة احمـرارًا واضـحًا وسـلخًا فـي الجلـد. نُقـل علـى الفـور إلـى المشـفى العسـكري فـي مدينـة العمـارة، وتـولى زميلـه الجنـدي أحمـد قيـادة العجلـة بـدلًا منه.

لكـن الحقيقـة المُـرّة أن الـذنب لا يقـع علـى جفـات وحـده، بـل علـى مـن زجّـوا بـه وبغيـره مـن الجنـود فـي جبهـات القتـال دون أن يُكملـوا دوراتهـم التدريبيـة، أو يسـتوعبوا أساسـيات صـيانة العجـلات. كانـت الـدورات لا تتجـاوز ثلاثـة أشـهر، وهـي مـدة لا تكفـي لتأهيـل جنـود لا يحملـون حتـى الشـهادة الابتدائيـة. كـان مـن المفتـرض أن تمتـد الـدورة لعـامٍ كامـل علـى الأقـل، يتلقـى فيهـا

المنتسب تدريبًا مكثفًا في الديناميكية والميكانيك والكهرباء، ويتعرف على الإطارات والفلاتر والزيوت وماء الكابريتر، وكل ما يتعلق بإدامة العجلة وصيانتها.

لكن الحرب لا تنتظر. كانت الحاجة ملحّة، والزمن ضيق، فدخل المنتسبون دورات سريعة، مُنحوا بعدها شهادة قيادة، ثم أُرسلوا إلى الجبهات. وإن أخفق أحدهم في فهم ما تلقاه، فمصيره أن يتحمل وزر ذلك وحده، كما حدث مع جفات. المهم لدى المسؤولين كان سد الفراغات، لا تأهيل الأفراد.

لم يكن يكفي أن يُمنح السائق عجلة ويُزج بها في الميدان، بل كان من المفروض أن يكون متفتح الذهن، قد أكمل على الأقل مرحلة التعليم المتوسط، ليتمكن من استيعاب المبادئ الحسابية والفيزيائية والكيميائية التي تتحكم في حركة العجلة. فالمحرك ليس مجرد آلة صماء، بل منظومة ديناميكية تحتاج إلى فهم دقيق، وقراءة واعية للعقد والمشاكل التي قد تعترضها.

كان يُعوّل على أن يتعلم السائق فنون الصيانة من خلال الاحتكاك اليومي بالميدان، حيث تكثر الأعطال في الوحدات بسبب ضعف خبرة السواق، وتدني مستواهم الدراسي، حتى أن بعضهم لم تطأ قدمه باب مدرسة قط.

في خلفيات الوحدات، تنتشر ورشات الصيانة والإدامة، حيث يُؤمل أن يكتسب السائق مهاراته تدريجيًا، عبر التجربة والخطأ، والاحتكاك العملي. لكن جفات لم يُمنح ذاته تلك

الفرصة. انزلقت به قلة الخبرة في أول مشوار له، وسقط في فخ الجهل قبل أن يتعلم كيف ينجو منه.

وما إن وصلنا خلفيات الفيلق الرابع، حتى بدأت الذكريات تطرق رأسي بذبذبات الحنين، تعيدني إلى أيامٍ مضت، وأماكنٍ غابت. كانت الجبهة تلوح أمامنا، ضبابية الملامح، مشوشة بالقلق، فيما كانت أصوات القنابل المتفجرة تتردد من حين لآخر، كأنها تذكير دائم بأننا على وشك المواجهة وحافة الخطر، وأن الحرب لا تمنح أحدًا فرصة للتأمل أو التراجع.

حين لامست أعيننا ضفائر الريح المتشابكة على جبين الأرض، انسجمت الأفكار مع تدفق الخيال في حوض ظرف جديد من القلق. كانت المناظر مختلفة، غريبة عن تلك التي ألفناها في منطقة الدير شرق القرنة. ومع طقطقة الانفجارات التي تطرق مسامعنا، تسللت الهواجس إلى فيض الماضي، إلى ربوع الطفولة والمراهقة، إلى الحنين والشوق، تتنقل بنا بين المواقع، وعلى وقع لسعات الذاكرة، تتأرجح بين الألم والحلاوة.

ومع شروع عجلاتنا في دخول جبهة الصراع، صرنا نتحسب للمعركة القادمة، كأنها ماثلة أمامنا. نتابع الفوضى الدائرة بين الجنود، ونستشعر فيض العزم والنزعة القتالية التي تحرضهم على التقدم والصبر، هربًا من جدلية الموت والأسر. تخيلت النيران مشتعلة في كل مكان، والدخان الأسود والأبيض يعانق السماء، ينذر بالوبال. يتصاعد من الوديان والقمم، من

العجلات والمواقع المحترقة، من شطط النار والجثث المترامية في العراء، مسجاة بالدم والهول والخوف.

أضحت الصورة بانوراما حرب جسدها الخيال على مسرح الذهن، كأن الأمر واقع لا محالة. تطرق آذاننا الداخلية أصوات المدافع، تحث المقاتلين على الاندفاع للأمام، على التمسك بتربة الوطن. كأنني فعلاً في وسط تلك المعمعة، بلحظة شرود سيطرت على ذاتي.

الفوضى التي توقعتها القيادة، كانت على حسب التقارير المرفوعة من ميادين القتال، فارتفعت أشرعتها في ساحة المعركة. وفي المقابل، أزفت أشرعة الذاكرة، ترفرف في الآفاق على صواري مراكبها. كانت الذكريات تسحر النفس كما يسحر الساحر، وما إن طفت فوق أمواج القلق، حتى لسعتني بغلها، لتنخر الذاكرة بمواقف لن تغيب، لأنها تركت أثرًا لا يُمحى، تلمع صدفيتها في حدقات العين.

بطبيعتي، كنتُ أرى الذاكرة أشبه بصُرّةٍ ثمينة، تحتوي على كنوز من التحف النادرة، لا تضاهيها أي صرة أخرى في الحياة. إنها جواهر لا تتكرر، بحلاوتها ومرارتها، كحضارات سومر وأكد وبابل وآشور. جواهر لها وقع دفين في النفس، كعشق قيس لليلى وعنترة لعبلة، لها آصرة لا تنفك، كآصرة الروح بالوطن، ترتبط بالطفولة والعائلة والأصدقاء، وتمتد خيوطها في الأوردة والشرايين، لتغوص في أعماق المخ والقلب.

إنها مرحلة بناء الشخصية، حيث تمتزج أنزيمات الحب بالحنين، وتتعانق المشاعر الجياشة مع الحدث، تربط الذوات العابرة بخيوط الشوق والطيبة، تلضمها كحبات مسبحة، ترسم فوق زمنها هلال محبة يدور في مدار الذاكرة، لا يقطعه جور ولا هوان ولا بهتان.

كم اشتقت لتلك الأيام الخوالي، أيام المراهقة بصحبة الرفقاء: عثمان، رائد، تحسين، إبراهيم، إياد... حين كنا نبتاع قارورة البيبسي الباردة من الحاج عبدالله في ظهيرةٍ لافحة، ونرفقها بصمونة حارة من فرن منشد المجاور. كانت تلك الصمونة المزيتة والمحمّرة، برفقة رشفة البيبسي، لذةً لا تُنسى، ونحن نتجول في شارع محلة الطليعة الجميل، المحاط بخضرة الحدائق والورود البهيجة، وبصنوف الأشجار: الأس، الدفلة، الكاليتوس، التوت، الصفصاف، النخيل، الصنوبر... والورود المتسلقة كاللبلاب والسرخس، تبعث عطورها نشوةً تستلطف النفس.

أحيانًا كنا نمر على بائعات القيمر، المعيديات، الجالسات أمام مقهى محمود، فنغتنم الفرصة لنعبئ الصمونة بالقيمر. كنّ يأتين من قرى جلولاء: الإصلاح، شيخ بابا، الطبج، وادي العوسج، يرتزقن من كارهن البسيط، فتجدهنّ دائمًا أمام مقهى محمود أو محل أحذية الباتا لعبدالرحمن الجلبي.

حتى الصمونة في تلك الحقبة كانت ألذ مما نراها اليوم. كنا نهجس بطعمها كطعم الكيك، تذوب في الفم، وتغري حدقة

العين بنكهتها الذائبة، تتوافق مع الدراهم البسيطة المدخرة في جيوبنا، فتغدو وجبةً شهية، كأنها حمامٌ مشوي، نتيجة العفوية التي كنا نحيا بها.

أعزي تلك الأجواء التي كانت ترفرف فوق رؤوسنا كنسيمٍ عليل، لصفاء الفكر، وهدوء البال، والألفةٍ التي جمعتنا على المحبة. لا حربٌ تفرقنا، ولا نعراتٌ طائفية تمزقنا، ولا قومياتٌ تنازعنا. كنا نعيش على الكلمة الطيبة، والبساطة، وحسن النية، والالتزام بعقائد الدين دون تزمت أو تعصب.

كبرنا، وكبرت معنا العقد. تسللت النعرات إلى قلوبنا، وفرّقت بيننا. فيما مضى، كنا نستنجد بالطرفة، ونستأنس بالطرافة، ونرتقي باللطافة. نستمد من قصص التراث والموروث الشعبي ما يضيء أيامنا، ونغوص في تفسير آيات القرآن، وننهل من الشعر القديم، ونترنم بأغاني ملؤها العاطفة والشجن. كنا نتبارى بالشعر الشعبي، ونستمع لناظم الغزالي، وعفيفة إسكندر، ومائدة نزهت، وفاضل عواد، وحسين نعمة، وياس خضر، وأم كلثوم، وعبد الحليم حافظ، وفريد الأطرش. كانت أغانينا مرآةً لقلوبنا، لا مرآةً لأهوائنا.... اليوم، تراجع الذوق، وانحدرت الأذواق نحو أغاني الشارع، كلماتها بذيئة، وألحانها خاوية. غابت الروح، وحل محلها الجسد المتخم بالرغبات.

كنا نعوم في نهر ديالى، نلعب كرة القدم والطائرة والشطرنج، نعزف الموسيقى، وننشد الحفلات في النادي. نحضر الأعراس

والمـآتم، نشـد أزر بعضـنا الـبعض. لـن أنسـى الشـهم خليـل فـوزي، أمهرنـا سـباحةً وغيـرةً، كـان يغـوص فـي عمـق النهـر كالـدولفين، يبحـث عـن الغريـق، لا يسـأل عـن طائفتـه أو قوميتـه، بـل يسـعى لإنقاذه، مدفوعًا بإنسانيته.

لـذا نعتـز بصـور الأمـس، نحـتفظ بهـا مجسـمةً فـي مخيلاتنـا، لأنهـا أكثـر وضـوحًا وحساسـية مـن صـور الحاضـر الباهتـة. منـذ أن تجاوزنـا ربيـع الماضـي، لـم نعـد نشـعر بلـون الخضـرة، ولا بعطـر الـورد. كلمـا ابتعـدنا عـن الماضـي، سـاقنا الـزمن نحـو مسـتنقع القـرف والرذيلـة، إلـى وهـدة التنـاحر والعـداء... كـأن الماضـي كـان قمـةً نقـف عليهـا، ومـا تـلاه منحـدرٌ نحـو القـاع. لا نـدري متـى ينتهـي زمهريـر هـذا الشـتاء، لكننـا نعلـم أن الفرقـة تتسـع، وأن رغبات السياسيين ورعناتهم تزيدها اتساعًا.

لـم نكـن نعلـم أن الحـرب قـد أُعـدّت سـلفًا، طُهيـت علـى نـارٍ هادئـة فـي مطـابخ الغـرب المسـتعمر، لا لتنتصـر فيهـا جهـة، بـل لتُشـل فيهـا قـدرة بلـدين مسـلمين، وتُنهـك قواهمـا كرمـالٍ تُفـرش تحـت أقـدام إسـرائيل. حـربٌ لا منتصـر فيهـا، أكلـت الأخضـر واليـابس، جـزّت رؤوسًـا يافعـة، بريئـة، لا أول لهـا ولا آخـر، واسـتنزفت اقتصـاد البلـدين حتـى العظـم، دون مبـرر سـوى عنجهيـة هـذا قرفـت عنجهيـة ذاك، فخلفـت مأسـاةً مـرة بـين شـعبين كانـا يومًـا يتقاسمان الخبز والماء.

هـذا الـزمن لـيس زمـن حـرب. ففـي العقـد الأخيـر مـن القـرن الماضـي، والعقـد الأول مـن القـرن الجديـد، طفـر العـالم الصـناعي

في تطوره بما يعادل قرونًا من التقدم. أما نحن، فقد غاصت أقدامنا في مستنقع الحروب، فتخلفنا عن الركب، وباتت دولتنا تمشي عرجاء خلف دول العالم، لا تقوى على التحليق في فضاء الصناعة والمعرفة.

في ذلك اليوم، كانت بطاريتنا قد أخذت قسطًا من الراحة بعد أن تجاوزت سيطرة الطيب بكيلومتر واحد، استعدادًا لدخول الجبهة. تتألف البطارية من ثلاث رعائل، كل رعيل يحتوي على أربعة مدافع، وملحقات للتموين والعتاد. انحرف رعيلنا جانبًا، واختفى خلف هضبة عالية على يسار سيطرة الطيب، استعدادًا للتموضع.

قطعنا أكثر من مئة كيلومتر بين الجبهتين، واجتزنا هور الحويزة، وفق خطة القيادة التي وجهت الرعيل الأول لإسناد الفوج الأول من لواء 14، والثاني للفوج الثاني، والثالث للفوج الثالث. كانت المعركة تُطبخ على نارٍ هادئة في مواقد قادة الفرس، على وشك أن تشتعل وتلتهم الهدوء العائم في الأجواء.

وادي الطيب، تلك الفتحة الضيقة التي لا تتجاوز المئة متر، كانت محور التوقعات. أرضٌ منخفضة، مفتوحة، لا تصلح للعبور إلا لمن قرر الانتحار. رأيتها بأم عيني، مربعة، مكشوفة، والمدفعية جاهزة لدكها. إن صحت التوقعات، فمدافعنا ستبيد القوات المهاجمة عن بكرة أبيها، ستمطرهم بوابلٍ من الغضب لن ينجو منه أحد.

لكن تلك الفكرة، رغم استحالتها، غدت سائدة في أذهان القادة الميدانيين، لقلة الخيارات. أصبحت حقيقةً تسري في شرايين الوحدات المتجحفلة، وبدأت تتحسب لتلك الفتحة التي بدت كفوهة نفق مظلم، مدخلًا للقوات المهاجمة.

وحدتنا كانت من بين القوات المدافعة أمام فتحة وادي الطيب. ومع حركة عجلاتنا التي تجر المدافع، تحركت الهواجس، وتعمقت الرهبة في قلوبنا، حين قُصف موقعنا بأربع عشرة قذيفة مدفع ثقيل ضمن دائرة قطرها مئة متر. هذا يعني أن موقعنا مرصود تمامًا، وأن العدو يرانا كما نرى أنفسنا.

تلك الرهبة صارت تلمس شعيرات أعصابنا، تحتك بنا عن قرب، تعصر الحنظل في كؤوسنا، وتغرس أشواكها في الذهن. أدركنا مرارة الصبر، وارتفعت وتيرة القنوط والكلالة في النفس، مع اقترابنا من دائرة الخطر.

الخوف مشروع، لكن حال الفرد قبل المواجهة يختلف عن حاله خلال الحرب. عند ساعة الصفر، ينزع المقاتل لباس الجبن، ينصهر مع النار والدخان، ينسى ذاته، ويصب تركيزه على شل حركة العدو. لا يفكر إلا بالظفر، بتكبيد العدو الخسائر، بالدفاع عن النفس، حتى لو كان الثمن حياته.

نقتل أو نُقتل، تلك مسألة خارجة عن الإرادة، لكن المهم ألا نتخاذل. في الحالتين، نلتمس ذات العزم، ونتلمس أثر الرهبة على الوجوه والأجساد.

خلال سير رتلنا، تنملت الأطراف تحت وطأة عصف المشاعر الغريبة التي اجتاحت الذهن، وكأنها رذاذ رعب لسع الأعصاب. أحاسيس رهيفة، تنبثق من لذعة الفُرقة المحتملة، وفراق الأهل والأحبة الأبدي. لقد حلّ الخبر علينا فجأة، كطائر تائه حط على صوارينا، وكون طبيعة عملنا تقتضي إسناد الوحدات المتقدمة عن قرب، فإن الاحتكاك المباشر بالعدو لا بد أن يتم خلال أول عشر دقائق من الهجوم. فالهجوم حتما سيكتسح الحجابات لا محالة، ونحن لا نبتعد عنها سوى كيلومتر أو اثنين. ما إن تبدأ المعركة، حتى نكون في قلب المعمعة، ضمن دورق الفوضى.

مدافعنا قصيرة المدى، لا يتجاوز مداها الكلي خمسة كيلومترات ونصف، وقذائفنا يجب أن تسقط في عمق العدو على مدى كيلومترين إلى ثلاثة، ما يعني أننا لا نبتعد عن خط التماس سوى بكيلومتر أو اثنين في حالة السلم، أما في حالة الاشتباك، فنكون في قلب النار.

ثم أنّ وقع كلمة "الحرب" غثيثة علينا، تلك الكلمة التي تُدخل الفكر في لب المتاهة، تفصل بين العاطفة والرغبة، بين الهدوء والسكينة. تصهر المشاعر في بوتقة واحدة، توقد فتيل الشوق في عتمة المسار، ما أن تشع اللهفة بأضواء الحب والحنان والحياة؛ حتى تستكين الروح في عين الحدث. إنها عاطفة العشرة والمواقف والأشياء الغالية المرتبطة بالذات، ترتعش لها الذاكرة، وتهتز سنابل القلب، فيتحول الشجن المكنون إلى

قـوة وصـلابة. تلـك الآصـرة مـن الحـب تـردم الكسـل، وتمـنح المقاتل عزيمة لا تلين، ليذود عن الوطن بثبات لا يُكسر.

تتوالـد الهـواجس فـي لحظـات خاطفـة، تتبـدل كمـا تتبـدل الريـاح، علـى غيـر العـادة. تبـدأ مـن حضـن العائلـة الصـغيرة، ثـم تتسـع لتغمـر مسـاحة الـوطن بأكملهـا. ومـع كـل خطـوة نخطوهـا، تتبـدل حالـة الفكـر، يغـدو ضـبابيًا، خليطًـا مـن الفوضـى، كـألوان لوحـة عبثية لا تفسير لها.

إنهـا صـورة مشوشـة لواقـع الجبهـة، يكتنفهـا الغمـوض مـن كـل جانـب. قـد تلـوح بعـض مؤشـرات الوضـوح فـي زوايـا شـفافة، لكنهـا لا تمنحنـا فكـرة مكتملـة عـن مجمـل الأحـداث، ولا عـن شـكل بانوراما الحـرب. وهكـذا، يبقـى الفكـر مقيـدًا، عـاجزًا عـن تفسـير الموقف.

صـببنا ثقتنـا فـي إمكاناتنـا، وتمسـكنا بالدفـة التـي نراهـا رصـينة، فغدا تعلقنـا ثابتًـا بـالجزء المشـرق مـن الحيـاة. فـالحرب سـجال، كـرٌّ وفـرٌّ، والمنتصـر فيهـا خاسـر إذا مـا قسـنا الأمـر بمقـاييس الـربح والخسـارة. تلـك هـي الحقيقـة، ولكـن لا مفـر مـن مجاراتهـا ومواجهتهـا. الـدفاع عـن الأرض والعـرض واجـب، وشـرف، ورجولـة، وقناعـة بـالوجود. هكـذا فسـرنا سـبب تواجـدنا فـي هـذا النزاع، ونزعنا الرهبة من قلوبنا.

قال عنترة بن شداد:

وإن الأفاعي وإن لانت ملامسُها - عند التقلب في أنيابها العطبُ

يقرأ التاريخ الحدث عبر آلاف السنين، ليؤكد أن هناك أطماعًا شرقية في أرض العراق، وكأنها عقدة لا تنفك. ما أن تهدأ لعقود، حتى تبدأ تلك الأقوام الطامعة بالتلصص على الظروف، فتدركنا عواصفها وتقلب علينا فصولنا. تتكرر الأحداث بين شتاءٍ بارد وصيفٍ حار، مقرونة بأجواء مغبرة خبيثة... كأنها لعنة لا تنتهي.

هكذا استمرت الحالة، بدءًا من عقدة كورش الإخميني، ذلك الفارسي الذي قضى على الدولة البابلية الثانية عام 539 ق.م، حين احتل مدينة بابل بمعاونة الخونة واتخذها عاصمة لمملكته. تبعت ذلك حروب لا تنتهي، بين كرٍّ وفرٍّ، حتى جاء احتلال المغول لبغداد على يد هولاكو عام 1258م، فسقطت عاصمة الدولة الإسلامية تحت وطأة الغزو.

واليوم، يطل علينا الخميني من ذات النافذة، بذات النية. فما إن جلس على كرسي الحكم، حتى راودته فكرة إسقاط حكومة بغداد واحتلال العراق، وكأنه أعدّ لذلك مسبقًا، وكأن التاريخ يعيد نفسه في مشهدٍ لا يخلو من التكرار والمرارة.

صارت الحيرة تتلون في بوتقة الفكر، ترهق القلب، وتوخز الظن بالخوف من المجهول القادم. خاصةً أن هذه هي أول مشاركة مباشرة لي، فحضر الخوف بشكله الهلامي، كضباب الفجر، ما أن ترتفع حرارة شمس الضحى حتى يتبدد وينقشع أثره.

الرهبة طبيعية، تسكن قلب الإنسان، لا سيما حين يكتنف الحدث غموضٌ كثيف. تتبعها الظنون كظلٍ لا ينفك، تناقش الحدث، وتبحث عن الحقيقة التي لا تُرى إلا من خلال الأنا المهزوزة في داخل النفس، تلك التي تلاحق التفكير وتحرص على النجاة.

وجس الخوف... بين المدفع والالتحام

هكذا يمر علينا الخوف، متسللًا إلى ثبات الإنسان في لحظة ضعفه، يطرق أبواب الروح، وينثر في مساره رائحة الموت. وما أن يدرك المرء المصير، حتى ينتفض من مكمنه كالأسد، يلتمس حرارة الشوق، والمشاركة، والمصير، فيثور كالثور الهائج، لا يتبع إلا ما جسّه قلبه وفكره من إقدامٍ وحذر.

أقصى مدى للهاون لا يتجاوز خمسة إلى ستة كيلومترات، ما يعني أننا على تماس مباشر مع أول إطلاقة للهجوم. وهنا، يغدو لمدى المدفع أثرٌ حاسم على قطعات العدو في العمق، يمنحنا فعالية في الردع، وقدرة على دحر قواته عن خطوط الحجابات الأمامية.

لكن أي تسلل للعدو، أو خرق لصفوف التماس، سيضعنا في قلب المعركة، وجهًا لوجه، ندًا بند. سنغدو هدفًا سهلًا، لقمة سائغة، يُقتلع وجودنا من جذوره في لحظة غفلة، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار عددنا الكلي في موقع الرعيل، والذي لا يتجاوز خمسين مقاتلًا، من الدرجة الثانية في أحسن الأحوال.

جنودنا غير مدربين على القتال المباشر، ولا على المواجهة بالسلاح الأبيض. نحن من يقدم الإسناد لقوات المشاة، التي نحتمي بها. فإذا ما تشابكت الخطوط، واخترقت قوات العدو صفوف الحجابات، فإن مدافعنا ستسقط من المعركة، إذ لن يكون لها تأثيرٌ يُذكر على القوات المهاجمة داخل خطوطنا. حينها، لن تستطيع قوات المشاة إسعافنا، لأنها ستكون مشغولة بالدفاع عن نفسها، غارقة في إدارة جراحاتها، ومشاكلها، وتكتيكات بقائها.

في قلب البطارية، تتوزع الحضائر بين ثمانية إلى عشرة جنود، كل رعيل يضم أربعة مدافع، ولكل مدفع حضيرة تديره، وإن ندر أن يكتمل نصابها. يُشرف على كل رعيل ضابطان: الآمر ومساعده، يعاونهم اثنان من ضباط الصف، وثلاثة معينين يتقنون فن التوجيه والرمي، ويرصدون تحركات العدو كأنهم يقرأون الأرض. أربعة مخابر ينسجون خيوط الاتصال، وعشرة سائقين يربطون المقدمة بالخلفية، حيث يتمركز الكاتب وأمين الصندوق، بعيدًا عن هدير المدافع، على بعد عشرة كيلومترات في عمق البطارية.

لا يتجاوز عدد من في المقدمة خمسين فردًا، بعد أن يُخصم منهم المتخلفون، والمجازون، والسائقون، والكاتب، وأمين الصندوق، وجماعة التموين. هؤلاء يظلون في الخلف، حيث الصمت أقل وطأة من صخب الجبهة.

كرامة الإنسان من كرامة وطنه، ومصيره من مصير الأرض التي نشأ عليها. لن ننسى صور الذل والهوان التي حفرت في الذاكرة، صور الفلسطينيين المشردين في أصقاع الأرض، بعد أن اغتُصبت أرضهم على يد الصهيونية، وبمباركة دول الشر: بريطانيا، وأمريكا، وفرنسا. تلك التجربة المريرة فرضت على العربي والفلسطيني الأبي مذلةً لا تُحتمل، وجعلت المرارة تلوك ألسنتنا كعلكة يابسة، لا تنفك عنّا مهما طال الزمن.

في تلك الليلة، استقر بنا المقام خلف سيطرة الطيب، بانتظار أن نتوجه إلى الجبهة صباحًا، وفقًا لأوامر آمرية الفيلق. انطلق آمر الرعيل لاستطلاع الموقع الجديد، في عمق الجبهة، حيث سنلتحم مع الفوج الأول من اللواء الرابع عشر، الفرقة الرابعة عشرة. هناك، حيث لا صوت يعلو فوق صوت المدفع، ولا شيء يُكتب إلا بالدم.

2- التوجس وحشرة القلق

مع وصولنا إلى سيطرة العمارة الرئيسية، لاحت أمامنا لوحة تعريف تشير بسهم عريض نحو طريق جبهة الطيب، الممتد شرقًا. كُتب عليها بخط الرقعة العريض: "جبهة الطيب". حينها أدركنا أن لحظة الحسم قد اقتربت، وأننا على مشارف نهاية الرحلة. لم يتبقَ سوى ساعات قليلة قبل أن نستقر في مواقعنا الأمامية.

لم تكن المسافة لتزيد عن ساعة من السير في طرق متعرجة ملتوية، تعكس طبيعة الجبهة التي تتدرج كأنها سلسلة من التلال والهضاب نحو عمق الشرق. كانت تلك الطرق محفوفة بالمخاطر، مرصودة من قبل العدو، إذ أن تضاريس المنطقة ترتفع تدريجيًا كلما توغلنا شرقًا، مما يجعل روابي العدو أعلى من مواقعنا.

بعد تجاوزنا سيطرة الطيب بنحو كيلومتر ونصف، وقبل غروب الشمس بساعة، انعطفنا يسارًا لمسافة كيلومتر تقريبًا، لنستقر تلك الليلة خلف إحدى الهضاب الشاهقة، على أرض منبسطة تحمينا من لعنة القذائف العشوائية. كانت تلك الهضبة أول قمة في سلسلة التلال الممتدة نحو عمق الجبهة.

كان علينا أن ننتظر تلك الليلة في العراء، حتى تتضح لنا معالم الجبهة. فالدخول إلى عمقها بعد حلول المساء أمر غير محبذ، خشية أن نلفت انتباه العدو، أو نقع فريسة سهلة في مصائده. الطرق ملتوية وشاقة، ولا معرفة مسبقة لنا بها، مما يستدعي

إنــارة مصــابيح العجــلات، وهــو مــا يفضــحنا بســبب صــوت المحركـات الـذي يتضـخم فـي سـكون الليـل، والغبـار الـذي نثيـره خلفنا.

لقـد فرضـت علينـا الطبيعـة الجغرافيـة مفـاهيم جديـدة للمواجهـة والمنــاورة. فبعــد أن كنــا فــي أرض منبســطة شــرق البصــرة، وجدنا أنفسنا في تضاريس وعرة معقدة في قاطع الطيب، وسط سلسـلة مـن الـتلال والهضـاب الشـاهقة، والوديـان السـحيقة، التـي تنتشـر فيهـا شـجيرات الطرفـة، والأعشـاب الصـحراوية البريـة، كالشـوك والعـاقول، التـي تقـاوم الجفـاف والحـرارة. كـان لزامًـا علينـا أن نقـرأ الأرض جيـدًا، قبـل أن نخـوض تفاصـيل المواجهـة القادمة...

ولابـد مـن أن نلتـزم بـالأوامر الصـادرة لنـا، كـي لا نعطـي للعـدو أيـة ذريعـة لمهاجمـة قواتنـا، أو نكشـف لـه عـن سـر مـن أسـرارنا، يجـب الالتـزام بالحيطـة والحـذر وبـالغش والاختفـاء علـى قـدر المسـتطاع، لأنَّ إهمالنـا لأيّـة سـريرة نكـون قـد كلنـا بزملائنـا وبأنفسـنا الويـل، كمـن ينبـه العـدو علـى تواجـد كثيـف لقواتنـا فـي المنطقـة. وقـد يسـتغل الفرصـة فيفسـح المجـال لمدافعـه أن تهـذر فيوقع بنا خسائرا لا طائل بتحملها ولا مسوغ لكل ذلك.

كمـا أنَّ تحـت جـنح الظـلام يمنـع إنـارة مصـابيح العجـلات بتاتـا، كمـا يفضـل عـدم التحـرك لـيلا إذا مـا أرادت الوحـدة أن تصـل مواقعهـا بسـلام. ثـم جعجعـة هـدير محركـات العجـلات تنبـئ العـدو بتحركاتنـا فيرصـد حركاتنـا، نثيـر انتبـاه العـدو بواقـع

وجودنا. بذلك سنأثر تأثير سلبي على قطعاتنا المنفتحة على الجبهة، سيكون ذلك مؤشرا واضحا للعدو بمعرفة سرائرنا وخفايانا.

في عتمة الليل، حين يتوارى الأمان خلف ستار الظلمة، تصبح الحركة مغامرة محفوفة بالمفاجآت التي لا تُسر، تلك التي لا تخطر على بال، ولا تُرسم في خرائط التوقع. حواجز تنبثق من العدم، تفرضها الظروف أو تسرّع الخطى، أو تلك الحالة المربكة التي تداهمنا دون سابق إنذار؛ كأن ينفجر إطار عجلة، فتتدحرج بنا إلى قاع وادٍ، أو أن تنفجر قذيفة على مقربة منا، فتشلّ حركتنا وتربك صفوفنا.

الليل لا يهب الأمان، بل يجرّ خلفه الشرر، ويغري العدو بإعادة حساباته. انعكاسات الضوء في النواظير، وهدير العجلات الذي يخرق صمت السكون، كل ذلك يمنح العدو فرصة ليمدّ يده الطويلة نحونا، بقذائفه التي لا تعرف الرحمة. وقد نمضي إلى التهلكة، لا لشيء سوى هفوة من أحد أفراد الوحدة، هفوة قد تكون ثمرة جهل أو قلة حيلة، فمعظم الجنود من فئة لم تنل من العلم إلا القليل.

تجربتنا في قاطع البصرة كانت درسًا لا يُنسى. ما إن وطئت أقدامنا مواقعنا الجديدة، حتى أثارنا العدو برمي صناديق العتاد من العجلات إلى الأرض دون روية، فاحتك البارود بالحديد، وانبثقت شرارة أشعلت النار في بعض الصناديق. حينها،

أمطرنا العدو بوابل من القذائف، ولولا ستر الرحمن، لكانت النهاية.

الدخول إلى القاطع ليلاً ليس مجرد انتقال، بل قد يكون زلزالًا يربك الجبهة، يكشف مواقع المشاة، ويمنح العدو ذريعة للهجوم. لذا، لا بد من الحذر، فالسكون السائد بين الطرفين ليس سلامًا، بل ترقبًا مشوبًا بالخشية. والهدوء النسبي قد يكون نذير عاصفة، لا نريد أن نكون من يشقّ هذا السكون، ويفتح أبواب البلاء قبل أن تكتمل دفاعاتنا.

في حال غفلنا عن تلك الأسباب وتجاوزناها بسلام، فإن تحركنا سيغدو جليًا، دلالة لا تخفى على العدو، تنبئه بتعزيزاتنا في هذا القاطع. وإن لم يبادر بالهجوم في ساعة الصفر، فقد يعجل به على حين غفلة، مستغلًا الفوضى التي تحيط بنا، فالحياة لا تمنح الفرص إلا لمن يقتنصها، واستغلالها غنيمة لا تُفوّت.

وربما تنحرف أفكاره إلى منحى آخر، يتلافى فيه خطر المواجهة، فيتحول إلى قاطع أكثر رخاوة وهشاشة، حيث تكون استعداداتنا فيه هامشية، لا ترقى إلى مستوى التحدي، خاصة وأن جبهة القتال تمتد لأكثر من سبعمئة كيلومتر، ما يجعل التوزيع متباينًا والاستعداد متفاوتًا... لهذه الأسباب، كان لا بد لنا من أخذ قسط من الراحة، نغسل فيه وجوهنا وأجسادنا من كدر الطريق، ونملأ بطوننا بطاقة تكفّ أمعاءنا الخاوية عن عزف نشيد الجوع المبتذل. فقد شرعت تلك الأمعاء تخفق في

شجو اشتياقها للميرة، تبحث عن زُكْب الصحون لتكفّ قيءَ التضور وشدة الإغواء والمسغبة. الكدر أنهك الجسد، ونخر العظم والعضل، حتى بلغنا حالة من الوشل والعناء.

إذا استقرت وحدتنا في تلك البقعة النائية تحت تلة شاهقة، في خلفيات القاطع الذي سنعمل فيه، تجنبًا لتلك الإرهاصات التي جالت في خواطرنا. وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف مساءً، فكان من الحكمة أن نستقر تلك الليلة، على أن نشرع في دخول الجبهة في نهار اليوم التالي، كي لا نقحم أنفسنا في معمعة تزيدنا عبئًا وعناءً وعياءً.

كان لا بد لنا من تجديد طاقتنا، وتنعيم عضلاتنا بالراحة والنوم، لنحتمل جهد يوم جديد، مليء بالعقد والمصاعب. كان علينا أن نرفد عجلاتنا وأجسادنا بالطاقة، ونرفد رؤوسنا بصفاء الذهن، قبل أن نتحرك إلى مواقعنا الجديدة..

دائمًا ما تكون الخطوة الأولى هي المفتاح لكل معضلة، المفتاح الذي يفتح أقفال الذهن، ويخلخل المجهول، ويطارد أسرار الأنا الغائبة عن النظر. إنها بوابة لا يدركها إلا صاحبها، وما إن يشرع الإنسان في بدء المشوار، حتى تتحلل تلك الأسرار العالقة في الذهن إلى عناصر قوة بين يديه، تعيد ترتيب ضعفه، وتعيد تعريف هوانه.

تلك العناصر التي طالما درسها وحرسها بصبر ووجل، والتي صيرها جدرانًا وأشواكًا لصد المخاطر، تتحول في لحظة صفاء إلى نبال تصيب صدر عدوه. إنها النية القاطنة في

مهـاجع الشـر، كبعبـعٍ يرهـق الظـن، يلـوك الفكـر، ويغـزل الغموض في مشهد الحياة.

يجـب أن تُكسـر أغـلال هـذه الأقفـال المحكمـة بثبـات، كـي ينقشـع الخـوف عـن وجـه الصـمت، وتلـين صـور الحيـاة فـي نواحيهـا. تلـك الأقفـال المربكـة، المسـتقرة فـي أعمـاق التفكيـر، والتـي اسـتُقيت مـن مخلفـات العمـر وتـراكم عقـد الـزمن، وقلـة الاحتكـاك، وضـعف التجربـة، وجـور السـلطة، حولـت الفـرد مـن ذئـب حـر إلـى نعجـة ترتع في حقولها.

لكن تلك الأقفال، مهما اشتدت، يجب أن تُكسر.

فـي كـل مرحلـة مـن مراحـل الحيـاة، يحتـاج الإنسـان إلـى فكـر جديـد يقـوده، خاصـة حـين تنحسـر الحريـة. يحتـاج إلـى عـزم وهمّـة عاليـة، يعيـد بهـا تركيـب أحجيـة الـذات، ليـتمكن مـن الإمسـاك بجـادة الصـواب، ويتحـول مـن ظـلٍ كـالح إلـى ظـلٍ نـاجز، ومـن ظرفٍ عسير إلى آخر ميسّر.

فمـا إن تُخطـى الخطـوة الأولـى، حتـى يتمهـد الطريـق، ويغـدو أكثـر سلاسـة. سـتعرف القـدم أيـن تضـع خطوتهـا، وسـنتمكن مـن تفسـير الحـدث قبـل وقوعـه، وتحديـد المسـار وموقـع الخطـورة القادمـة. سنعرف الاتجاهات، ونتعلم كيف نواجه القدر ونتحاشى شرّه.

لابـد مـن اختـراق الحـواجز المنيعـة التـي خلقتهـا الظـروف. حينهـا، سـنزيح هـاجس الخـوف مـن حشـف القلـب، ونكشـط صـدفية الوجـل

وقشوره، ويُسفّ القلق من بواطن الذات. ستغدو المسائل عادية، روتينية، سهلة، محكومة بالبساطة والحكمة.

من الطبيعي أن يضطرب القلب مع أول حركة، أن يشذ الذهن عن مداره، أن يتكور في ارتباكات عشوائية تتبع صحوة الذات والذاكرة المتدثرة بملاءة من الحب والعاطفة. قلقٌ شفيف، ينعكس وجومه على الوجوه كغمامة صيف طافحة في الأفق.

ومع دوران العجلات من موقعنا الأول، كانت قد تنملت شعيرات الأعصاب في البدن، كأنها حشرات دقيقة تتحرك تحت الجلد وفوقه. هجست بها، لامست يقيني وظني، أطرافي وظهري، كتصبب قطرات العرق من مساماتها تحت سطوة الحر. حتى أني، من شدة القلق، بتُّ أتحسس يدي لأتأكد من أنها ما زالت سليمة، طبيعية.

القلق، ذاك الهاجس الذي لا بد منه، أحسبه ككولونيا الحلاقة التي تفيق المغمى عليه من صدمة سرقت بهجته. لولا القلق، لما أبدعت الأنامل في رسم خارطة الحياة في أروقة الظن، ولما برع الذهن في تجاوز هذيان الخطر قبل انفجاره. فبمجرد أن تحط حشرة القلق في شباك الذهن، يستطيع الإنسان أن يجرد ذاته من الخطر، من قرف الكوابيس، ويعكف على التخطيط الصحيح لتجنب المفاجآت غير المحسوبة، بتأنٍ كبير. القلق، بلسمٌ للصبر، قد يقحم الذهن بفكرة نيرة تعينه على تجاوز الموانع الشاخصة أمامه، وتُسهل عليه فك عقد المستحيل، ليجنب النفس مخاطر الأذى الدائرة حوله.

وبعد جهد شاق وميسر، طال نهار ذلك اليوم بأكمله، كان لا بد لنا من أخذ قسطٍ من الراحة قبل أن ندخل فعليًا ميدان الجبهة، حيث يصعب تقدير محاذيرها.

3- مزرعة العقارب

فـي تلـك البقعـة النائيـة، خلـف قـاطع الجبهـة، حيـث الأرض تنـأى عـن ضـجيج الشـارع الرئيسـي، لـذنا بصـمت تحـت الهضـاب الشـاهقة، بركنـا كأننـا نلـج بحضـن الطبيعـة الأم، ننتظـر نهـار الغـد أن يحل، محمّلًا بالمهام والاختبارات.

كـان لابـد مـن الاسـتعداد للراحـة بعـد عنـاء الطريـق، بعـد يـوم شـاق مـن المسـير، كنـا قـد افترشـنا الأرض، زلنـا عنهـا شـوكها وحصـاها، بتنـا نهيئهـا لتكـون سـريرًا مريحـا مـن الطمأنينـة، نغفـو فيهـا مـع مسـاج النسـيم، ونحلـم بزهـرات الربيـع التـي تتـراقص مـن حولنا وأمامنا كأنها ترحب بنا.

لوحـة الطبيعـة السـاحرة: كانـت الأرض كعـروس فـي زفتهـا، مزينـة بأزهـار ياسـمين، نـرجس، سوسـن، شـقائق نعمـان، ورود بريـة بـألوان لا تُحصـى، كـل زهـرة تهمـس بلونهـا، وكـل نسـمة تمرّ بها تنثر عبيرًا يهدئ الروح ويغسل تعب الجسد.

خلـف ذلـك الجمـال الربيعـي، كانـت المفاجـأة كامنـة: الأرض التـي حللنـا فيهـا لـم تكـن سـوى مزرعـة عقـارب! عقـارب صـغيرة، تتلـون بلـون الطبيعـة، كأنهـا ترتـدي زيًّـا عسـكريًا مموهًـا، تتسـلل بـين الأثـل والزهـور، فتبـدو جـزءًا مـن المشـهد لا دخيلـة عليـه. هكـذا هـي الحيـاة علـى أطـراف الجبهـات: بهجـة الطبيعـة تمتـزج

بوجع الحرب، ورقة الزهور تتقاطع مع لسعة العقارب، كأنها تهمس لنا: لا جمال بلا خطر، ولا راحة بلا حذر.

صرنا نلهو بها، نسكب الماء من صنابير الأباريق في ثقوبها المنتشرة، مستعينين بضوء القمر قبل أن ينزوي خلف الأفق. وما إن تخرج من جحورها حتى نقضي عليها. مسحنا الأرض وتخلصنا من أكثر من ثلاثين عقربة، كانت تؤرقنا نفسيًا قبل أن نغرق في النوم. ساعدنا القمر، كأنه تواطأ معنا، يراقبنا بصمت، يغمرنا بنوره، يحاورنا بابتهاج خفي، كأنه مظلة رحمة تعيننا على تدبير أمورنا.

تساءلت حينها: هل تغير العقارب جلدها حسب الفصول؟ أم أنها ولدت هكذا؟ تهجس بها كغيرها من الكائنات، تتلون بلون البيئة، منها الصفراء والسوداء والرملية، ومنها تلك المرقعة بلون العشب الأخضر المصفر، تكاد لا تُميز عن الأرض لولا حركتها.

الثعابين والعقارب هما أكثر الكائنات التي تثير قلق البشر، وبعضها يُعد من أشد الأنواع سُمًّا. وقبل أن نخترق جدار السكون ونغرق في بحر الكرى، كنت أهجس بالوسن وقد غزا الجسد، تغلغل في الجفن، واستسلمت له.

وفي قمة أرقنا، بعد أن فرشنا بسطنا وتمددنا، حشر السائق محمد نفسه بيني وبين غافل السماوي، الذي كان بدينًا جدًا. كنت حينها مستجدًا في الوحدة، لا أعرف معظم الجنود، خصوصًا

السواقين وعناصر التموين الذين يقطنون في خلفيات المقر. علاقاتي كانت محدودة، مقتصرة على فئة المخابرة والقداحين.

اضطررنا أنا وغافل إلى الانزياح جانبًا، فصار نصف جسدينا على أرضية العشب، كنا نخشى لسعات العقارب التي لا نأتمن مكرها، رغم برودة الليل حيث العقارب من ذوات الدم البارد التي تتحاشى البرد كالثعابين... حاولنا إبعاده، لكنه التصق بنا كالعلكة، لم يصغِ لتوسلاتنا، وكأن التعب الذي أنهكنا لا يعنيه. اقترحنا عليه أن يرقد في قمارة العجلة المركونة خلفنا، أو أن يفرش فرشته جانبًا، لكنه أصر على المبيت بيننا. فشلت كل محاولاتنا، حتى قلت له، وقد نفد صبري:

– يا أخي، أتعبتنا ونحن متعبون... شنو أنت "لصقة جونسن"؟!

وما إن أكملت عبارتي، حتى وثب كقط مذعور، وهرب بعيدًا، وسط ضحكات الجميع. لم أصدق وقع الكلمة عليه، وكأنها صعقة كهربائية انتزعته من بيننا.

ضحك غافل وقال:

– يا أخي، الكل ينعته بهذه الصفة، ثم جئت أنت وأكملت عليه، حتى الذي لا يعرفه اكتشف أمره من أول لحظة!

رد محمد بعصبية:.....

– يا كلب، أنت الذي أخبرته، يا نذل!

فانتفض فنيخر السماوي، وقال له:

– يا نعال، لا تغلط على تاج راسك، من بعده يلبسك؟!

ثم أضاف:

– أنت مثله، تافه ونعال... طز بكم وبه!

قلت له ضاحكًا:....

– لا والله يـا محمد، لـم يخبرنـي أحـد، لكـن فعلـك أوحـى لـي بصفاتك... فعلاً أنت لصقة جونسن!

بعدها، اتجه إلى حوض العجلة، ليرقد بها بعيدًا عن المجموعة.

فـي تلـك اللحظـة، كـان فاصـل الضـحك بمثابـة نسـمة لطيفـة هبّـت علينـا حـين كنـا بـأمسّ الحاجـة إليهـا. فصـلٌ غلبـت عليـه ثيمـة المـرح وجديـة الألفـة، شـغل بهـا الجمـع، فبـدّد القلـق مـن الأذهـان وجمـع القلـوب علـى محبـة صـادقة. كانـت تلـك الطرافـة المتجـددة، المنبعثـة مـن واقعنـا المحـيط، أشـبه بتـدليكٍ للجسـد والعقـل الـذي أنهكتـه حشـرات القـرف، لسـعةٌ مـن المـرح أعـادت لنـا شـيئًا مـن الحياة.

ثـم سـرقنا النـوم مـن فـم التعـب والكـدر، تسـلل مـن بـين أطـراف الحـديث كمـا تتسـلل النسـمة فتنتـزع الكـدر مـن الجسـد. بقيـت الشـفاه مبتسـمة حتـى أغلقـت الأجفـان علـى زبـد الكـرى. صـار الوسـن يلاحقنـا فـي أزقـة الهـواجس والمشـاعر التـي تراخـت وتحللـت، يغلـق أبـواب اليقظـة بابًـا بعـد بـاب، حتـى حشـرنا فـي زاويـة

الكرى، مستسلمين لوجس أسفاره، نغرق في النوم مرغمين. بدأ البعض يشخر كقطار منهك يجر خلفه عربات كدره، وكأننا مجموعة منصوبة في خبر كان، في سبات أصحاب الكهف، لا يزعجنا سوى أصوات بنات آوى الشريدة وعويل الذئاب الخائرة في البراري، تلك التي تشهد على بعدها وغورها في أعماق المسافات. تقابلها نباح الكلاب السائبة، وكأنها ترد عليها محذّرة من الاقتراب، تحرسنا من غدرها.

كانت تلك الأصوات المفزعة تؤكد أننا نائمون في رقعتها الجغرافية، لذا توجّب علينا الحذر، لكن الكدر جردنا من مسؤولياتنا، فتهنا في متاهة الإرهاق. الحمد لله أننا لم نكن في مواجهة مباشرة مع العدو تلك الليلة، وإلا لكان شخير البعض قد فضحنا، يكشط الوسن عن العيون، ويزيح الشمع من آذان العدو. لو كنا في الخطوط الأمامية، لتحولنا إلى لقمة سائغة في فم المدافع.

التعب أطبق علينا، رمانا في سبات عميق، فيما بقيت ذوبية الصحوة ترتعش من غدر العقارب. لحظات حرجة مرت، انتابنا شك من أن تهاجمنا ونحن منكفئون على وسادة النوم. تولّد الظن من الشك والنكد، ألبسنا جلباب الحيرة والاستسلام، أوهمتنا كثرة عددها، رغم أن القلق تراخى أمام سطوة الكرى.

في الحقيقة، لم نعر أهمية كبيرة لتلك العقارب، فالجو كان يلفّه نسيم بارد في نهاية شباط، والعقارب تتجنب لسعات البرد، شأنها شأن الثعابين وبعض الخنافس من ذوات الدم البارد، التي

تتحـول خلاياهـا إلـى مكعبـات جليديـة تعيـق حركتهـا، فتغـدو كقطعة خشب ميتة.

بتنـا ليلتنـا كـالأموات، فيمـا كـان شـخير الـبعض وبـالًا علينـا، زادنـا أرقًـا ونكـدا. لكـن تجمعنـا كـان أشـبه بخليـة نحـل اجتمعـت علـى الألفـة وحـب الـوطن والإيثـار، حيـث تشـعر أن كـل فـرد هـو جـزء مـن جسـد واحـد، كمـا قـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم: "مثـل المـؤمنين فـي تـوادهم وتـراحمهم وتعـاطفهم كمثـل الجسـد، إذا اشـتكى منـه عضـو تـداعى لـه سـائر الجسـد بالسـهر والحمـى." وجـاء كـل جنـدي مـن محافظـة وطائفـة مختلفـة، دفاعًـا عـن الـوطن، مصـداقًا لقولـه تعـالى: "لَـوْ أَنْفَقْـتَ مَـا فِـي الْأَرْضِ جَمِيعًـا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ" ـــ صدق الله العظيم.

4- التحرك للخطوط الامامية

بعد يومٍ شاقٍ من التهيئة والعمل، تحركت وحدتنا - رعيل الهواوين الثقيلة - في الساعة الثالثة من عصر اليوم التالي نحو عمق الجبهة. سرنا في مسرب ترابي حفرته عجلات السيارات وسرف الدبابات والمدرعات الثقيلة، حتى غدت التربة مسحوقة من كثرة الحركة ذهابًا وإيابًا. لقد جرشتها العجلات، وطحنتها حتى صار طريق السبيس مهروسًا، نُخِلت ذراته، ونُفِشت بدعس الإطارات، فتحولت إلى ما يشبه نُخال دقيق الخبز، تتطاير مع الريح لرهافتها وهشاشتها... ما إن تمر عليها عجلة، حتى تغطس في نفاش التربة، ويتطاير خلفها هباؤها على طول الطريق، كأنها تعلن للعدو عن موقعها. كانت التربة بنعومة ملمسها خاوية كخواء الصوف والقطن، تخون من يسير عليها بصمتها المفضوح.

ومع تقدمنا، ازداد الطريق التواءً ووعورة. ارتفعت الهضاب، وازدادت الوديان انحدارًا، خاصة في الثلث الأخير من المسافة المقطوعة، حيث بلغت تلك المرحلة أشد درجات التعقيد. كانت تضاريسها تضاهي تعقيد الجبال الصخرية الحادة، التي تشتد فيها انحناءات الصخور وتقطّعاتها نحو سحيق الوديان، وكأنها من صنع البشر للحدة التي تبتهج بها.

كان المسار حافلا بالصعوبات التي تساعد على الغش والاختفاء. سرنا بحذر في ذلك المسرب، لألا نثير فطنة العدو، متسترين بظل الهضاب وتلك الوديان والالتواءات الطبيعية..

اتخذ الطريق من السفوح والوديان ستارًا لمساره نحو المواقع المتقدمة، حتى غدت تربته، لكثرة مرور العجلات، بيضاء كدقيق الخبز، واضحة للعيان حتى في عتمة الليل دون حاجة لفتح مصابيح العجلات. وكلما اتجهنا شرقًا صوب الحدود الإيرانية، ازدادت الأرض عقدًا ووعورة، وتكاثفت تضاريسها كأنها تتآمر على المارين.

كنا نتحفّى بالحذر، ونتوارى خلف المنحنيات والمنخفضات، خشية أن ترصدنا روابيهم ومراصدهم التي تعلو روابينا، تلك الشاهقة كأعشاش اللقالق، تتخذ من القمم بيوتًا لها. تسلقنا المرتفعات بحبل الصبر والتأني، كمتسلقين مغامرين، نتجنب كل مكروه أو طارئ قد يكيد بنا.

سلكنا الطريق بحذر، وغدت العجلات كرحى تطحن التربة، تضغطها وتدعسها وتنهشها بحرارتها، حتى إذا مرت بها عجلة، غرست إطاراتها في ثناياها، فتغدو كآلة هرس تنثر غبار الأرض خلفها عاليًا، تحمله الريح على عاتقها، وتذرّه في الأفق، ثم تسكبه على الرؤوس والوجوه، وتغمر به الأرجاء المتاخمة خلفنا.

ورغم سكون الريح، إلا أن نثار التربة يتطاير كعصف ذري، لخفة وزنه، يترك هالات من الغبار تغشي أجسادنا، وتتعشق برؤوسنا، وتغتابنا بارتفاعها، فتشي بمكاننا للعدو، في الوقت الذي ترهق فيه أعيننا وأنفاسنا.

أكثر من عانى من تلك الحالة هم المصابون بالربو، الذين يتحسسون الأجواء بمجرد تلوث الهواء. أحيانًا تدفع الرياح تلك الغبرة باتجاهنا لهيافتها، أو نلتف عليها مع التواءات الطريق التي تجبرنا على السير في مساراتها ومنحنياتها، فننغمر بظلالها الكثيفة. بعضنا لف رأسه بعصابة أو يشماغ، متجنبًا آثار الغبرة كي لا ترهق أنفاسه وتغزو جيوب خياشيمه.

كانت العجلات الساحبة لمدافعنا من نوع "كاز 66" الروسية أو "الإيفا" الفرنسية، يغطي حوضها جادر - وهو غطاء سميك من الكتان - نحمل داخله أمتعتنا وفرشنا، ويرتقيها عدد من الجنود من قداحين ومخابري الرعيل.

ورغم ذلك، تتسلل الغبرة إلى كل مكان، حتى تكاد تحجب نور الشمس، فتغدو وبالًا على الوحدات المنفتحة على الطريق، وتمنح العدو مبررًا لقصف تلك البقعة عشوائيًا كل يوم.

لكثافتها، تمسح الغبرة الوجوه كديرم الأساس، وتكحل العيون والجفون بظلال ترابية، وتملأ الأشداق والأنوف بزكمها ودقيق هبائها، حتى تربو بها الصدور بنعومتها الهفافة. تذوب في الأفواه مع لعاب الجنود غير المحصنين، وتتماهى بلون التربة في رضابيهم، وتجف على الشفاه كصبغة ديرم صفراء، تلتصق بالأهداب والرموش، وتغطي الملابس والهياكل، وتغشى الشعر بصفرة تطلي الجذلة وذوائب الزلف، حتى تبلغ الشارب والحاجب. تجعل الوجوه متشابهة كالصينيين، فنخرج من تلك المعمعة متوشحين بإكليل الغار، مميزين عن غيرنا.

تقع السلسلة الجبلية شمال شرقي قرية الطيب العراقية، وتتخللها هوة ضيقة تشكل مسلكًا لوادٍ يشق طريقه بين المعاقل الحجرية، يجري خلاله نهر الطيب شبه الجاف، لقلة منسوبه، من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، مارًا بقرية الطيب ثم مستميلًا بالجريان نحو هور السناف شمال مدينة المشرح.

المنطقة شمال شرق النهر جبلية معقدة طوبوغرافيًا، يصعب القتال والدفاع فيها. أما جنوب النهر، فهي منطقة مفتوحة منخفضة، تغمرها مياه مستنقع هور الحويزة، ولا تصلح للقتال والمناورة بسبب رخاوة تربتها، إذ تظل أرض نزة دائمة لبسطة الهور عليها، وتمتد حتى مشارف مدينة القرنة.

وما إن قطعنا تلك المسافة، حتى دخلنا منطقة الخطر، حيث تطالنا مديات مدفعية العدو، فصرنا تحت رحمتها ورحمة القدر. بتنا أكثر حيطة وحذرًا، نسير برفقة الأمان المدعوك بالرحمة في خواطرنا، الشارد عن سطور لواحظنا، نبحث عن السكون المراق بين وهدة الوديان، نراه هنا وهناك نطيطًا، كخيال يرشدنا إلى مواقعنا، يرافق ذواتنا، يخطر في أذهاننا بلسعة صاعقة، ينبئنا بالخطر المحيط، الذي يتبدد سريعًا تحت جلجلة هدير العجلات. نهجس بالأمان بلونه الشفاف، لكنه يتلاشى بقدحة زناد، بومضة إضاءة سافرة، أو برعدة مدفع، أو بجلبة محركات العجلات المنهكة.

لذا صرنا نسير على رؤوس اصابعنا، على رؤى الصمت القانط في وجلنا، وتحت ستارة الهدوء المستاءة من المكان

والمشفقة على الصبر، حيث لا نريد للمفاجآت موضع قدم بيننا. ماضون بعملنا وسعينا لإدراك موقعنا.. فمنذ نهارين ونحن نبحث عن استقرار وراحة تأوينا.

كما أن الكل تأمل أن تنتهي هذه الحرب اللعينة، ها هي تدخل عامها الخامس دون هوادة. باتت النفوس تشهق مللها وتزفر قرفها، أصبحنا والآلة صنوان لا نشعر بحقيقة الحياة والوجود، ماتت رهافة القلب وتلك المباهج في العيون، اضحينا نتأملها في الأحلام التي طفشت مع دوي تلك المدافع كالعصافير. تلك الحرب اختزلت سطور المستقبل في سطور الوطن، تجرأت على وداعتنا، شتت دروبنا، صرنا نلتمس عناوين الضياع في أحرف النزاع مع طول فترة الحرب.

أضحى التيه علامة بارزة في فكر الكثير من الشباب. أهجس بالظرف زاد قسوةً، بات يجرفنا لمهاوٍ مجهولة، كل منا غائر بكم كبير من الهم والغم، هموم شخصية ووطنية وعامة متشابكة، كل يدور في دوامة الفلك كالقشة التي تدور في دوامة العاصفة.

كل منا صار يعد ساعات نهجه، ليستنبط لحظة صفاء تعانق أحلامه، العيون تتبع حلكة الغروب وكأنها تتأمل من تلك النجوم الغائرة في جوف السدم أن تبتهج، أن ترفد النفس الأبية بأمل يناقض قسوة الظرف، أن تعيد البسمة للأشداق المرتخية، عسى أن تعيد لها نضارتها..

صـورة عـن تقسـيم اللـواء لثلاثـة أفـواج وكـل فـوج لثلاثـة سـرايا وكـل سـريه أمامهـا مجمـوعتين مـن الحجابـات المتقدمـة فـي مواجهة العدو

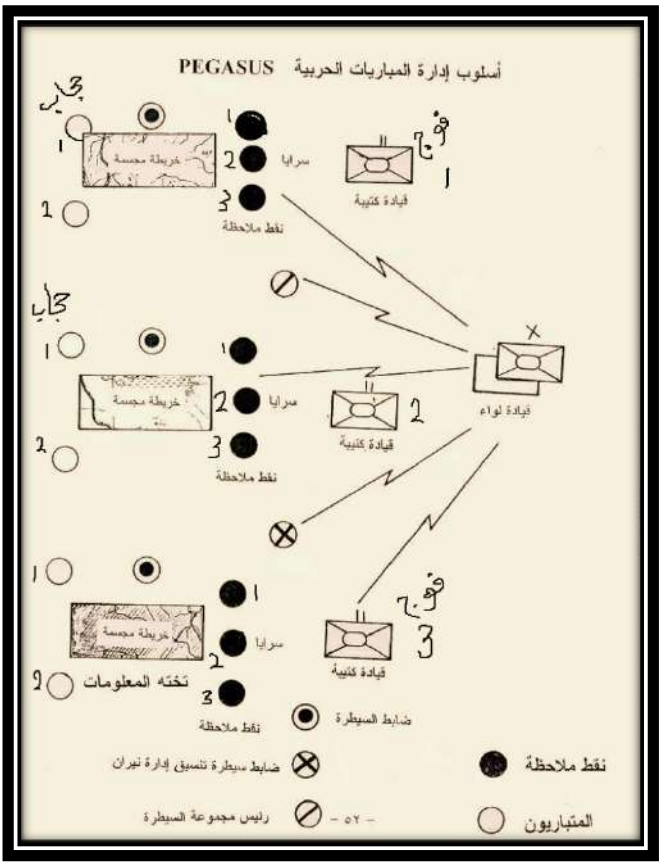

الفصل الثالث

1- المفاجآت الغير سارة

لا أنسى تلك اللحظات الحرجة التي مررنا بها عند دخولنا جبهة قاطع الطيب، التابعة للفيلق الرابع شرق مدينة العمارة، قادمين من قاطع الدير شرق مدينة القرنة، استعدادًا للهجوم المتوقع من قبل العدو. كُلّفنا بإسناد أحد أفواج لواء 14 المنتشر على مساحة تمتد من نهر الطيب حتى الأراضي المنخفضة شمال هور الحويزة، وكانت مهمتنا دعم الفوج الأول المنفتح على النهر، تحسبًا لأي هجوم مباغت عبر وادي الطيب، حسب تقديرات القيادة العسكرية آنذاك.

دخلنا القاطع يوم الأربعاء، 20 شباط 1985، وأدركنا موقعنا قبل الغروب بساعة. استقبلنا الغسق بنثار غباره القادم من الشرق، وسرنا في الطريق بحذر شديد، كأننا نسير بخطى السلحفاة، خشية أن نوقظ حفيظة العدو أو ننبئه بوجودنا غير المرغوب فيه.

استغرق تحركنا من موضع المبيت قرب شارع بغداد حتى وصولنا إلى الموقع المحدد قرابة ثلاث ساعات من العناء، تحملنا خلالها غبار الطريق الذي أصبح ينفذ إلى مشاعرنا وأحاسيسنا بعد أن ملأ ابداننا. أصابنا التعب والعطش، وصارت نفوسنا تلوذ خلف قمع ماء عذب نرطب به شفاهنا، لكن المياه المخزنة في المقطورة، التي تجرها إحدى الساحبات، لم تعد تروي ظمأنا، بسبب جلبها من مياه شط العرب المتأثرة بمياه الخليج العربي.

ومـا إن توقفـت عجلاتنـا وسـط الموضـع حتـى نزلنـا نكـت الغبـار والتعـب عـن اجسـادنا التـي تحملـت وزر الطريـق، وعـورة المسافات المليئة بالحفر والالتواءات خلخلت أعضاء الجسد.

عنـد دخولنـا القـاطع، كـان يسـود الجبهـة هـدوء حـذر، وكـل شـيء يبـدو مستتبًا. لكـن الموضـع الـذي حللنـا فيـه كـان مهجـورًا منـذ سـنة علـى الأقـل، اسـتخدم مـن قبـل رعيـل هـواوين سـابقًا. الملاجـئ مغطـاة بالنباتـات الشـائكة والعشـبية، ومليئـة بالحشـرات والعناكـب والعقارب والثعابين، لا تصلح للإيواء دون تنظيف وصيانة.

وصـلنا مـع لسـعة الغـروب، ولـم تكـن لـدينا فرصـة لتنظيـف الملاجـئ قبـل إعـداد أنفسـنا وتهيئـة المـدافع. أعتقـد أن دخولنـا فـي هـذا التوقيـت كـان خطـأً فادحًـا، فـآمر الوحـدة اسـتطلع الموقـع قبـل يـوم، لكنـه غفـل عـن حالـة الملاجـئ. كـان مـن الأفضـل دخـول الجبهـة فـي سـاعة الظهيـرة، لنـتمكن مـن تنظيـف الموضـع وتجهيزه قبل حلول الظلام.

الـدخول إلـى الجبهـة لا يعتمـد فقـط علـى سـلامة الـداخل، بـل علـى سـلامة مـن يظـل فـي المكـان أيضًـا. كـان يجـب تـداول فكـرة الـدخول مـع المعنيـين وتوقـع أسـوأ السـيناريوهات، لأن مـا تعرضـنا لـه كـاد يـودي بنـا جميعًـا، لـولا رحمـة مـن الله حلـت بالمكان مع حلولنا فيه.

لقـد اسـتقرت وحـدتنا فـي منعطـف أحـدى القمـم ضـمن القـاطع لإسـناد سـرايا الفـوج الأول مـن لـواء المشـاة 14 ، المنفتحـة أمامنـا حول الوادي السحيق الذي يفصل بين حدود الدولتين.....

في نهاية القمم المطلة على الوادي السحيق، كان مرصدنا يرصد المشهد من مرتفع على عرض وادي يقارب الكيلومتر، فيما يتقدم المرصد عن موقع الرعيل بمسافة مماثلة. أما حجابات قواتنا، فكانت ترابط أسفل القمة، عند بداية فسحة الوادي، تحت إشراف مباشر من المرصد. قوات العدو كانت تبعد عن حجاباتنا قرابة ستمئة متر، ما أتاح لنا مراقبة تحركات آلياتهم ودروعهم بين الفينة والأخرى.

كانت تلك صورة عامة لوضع وحدتنا على الجبهة.

ومع دخولنا أجواء الغسق، وانسحاب الشفق خلف ومضة الشمس الأخيرة نحو جهة الغروب، تلاشى خط الزوال من الذهن والسماء، لاذت العصافير بأعشاشها خلف ستار الدجى والسكون. في تلك اللحظة، دوّى صوت قذيفة مدفع ثقيل باتجاهنا من قبل مدافع العدو، قاطعًا سكون المساء.

كنا نعمل بجد لإنهاء مهامنا وتثبيت المدافع في مواقعها، نتحرك بسرعة تتجاوز الزمن، نحاول اجتياز فترة الخطر المحدقة بنا، تجاوز تحدياتنا وتثبيت وجودنا في المكان. ومع تشعب الغروب وسكون الأثير، باتت ذرات الهواء تلتصق بالأرض، تنفل صخبنا وجلجلة عجلاتنا إلى مسامع العدو.

وقد فطن العدو إلى ذلك قبل أن ينتبه إليه آمر وحدتنا.

ومع وشاح الظلمة الذي أحاط بنا، شددنا أحزمتنا وبدأنا العمل بجد لتوجيه المدافع نحو أهدافها قبل أن تشتد حلكة الليل. ثم شرعنا بتنظيف وترتيب مواضعنا، وفق أولويات واضحة: توجيه المدافع، توصيل الأسلاك بموقع الفوج والمرصد، ثم تنظيف الملاجئ.

كان للوطاويط المقيمة في جحور التلال والهضاب حضور لافت في كرنفال وداع الشمس، إذ راحت تجول فوق مواقعنا، كأنها تعترض على وجودنا، على احتلالنا لأيكاتها وثكناتها. فهي صاحبة الأرض الحقيقية، تسكن الكوات والثلم في الهضاب الصخرية، وحتى الملاجئ المهجورة التي حللنا بها.

كل شيء بدا هادئًا، والكل يسعى لإنهاء عمله قبل أن يستسلم للرقاد، خوفًا من المحظور. الكل يتأمل فجرًا جديدًا، مشرقًا، يسوده السلام. كانت التهيئة ضرورية، فالإشاعات تتحدث عن هجوم محتمل على القاطع، ما يستدعي عزيمة مضاعفة وتأهيلًا عاجلًا لوضعنا المهلهل، قبل أن يقع الفأس في الرأس.

في نهاية القمم المطلة على الوادي السحيق يكمن مرصدنا، كان عرض الوادي قرابة كيلو متر تقريبا. كما أن المرصد يتقدم عن موقع الرعيل مسافة كيلومتر تقريبا، فيما كانت تقبع اسفل القمة مع بداية فسحة الوادي؛ مواضع حجابات قواتنا، تلك التي كنا نشرف عليها من المرصد. فيما تبعد قوات العدو عن الحجابات العراقية قرابة 600 متر تقريبا. كنا نستطيع

رصد تحركات آلياتهم ودروعهم بين آونة وأخرى. هذه فكرة عامة على وضع الوحدة في الجبهة.

مع دخولنا في أجواء الغسق بعد أن تنحى الشفق جانبا، مسحوبا خلف الومضة الهاربة من بقايا هباء الشمس لجهة الغروب، ومع تلاشي خط الزوال الأخير من الذهن والسماء، مع لوذ العصافير لأعشاشها خلف الدجى والسكون والعزلة، مع تلك الأجواء اطرقت مسامعنا صوت قذيفة مدفع ثقيل باتجاهنا.

كنا نعمل بجد من أجل إنها عملنا وتثبيت مدافعنا في مواقها، نتحرك بسرعة تفوق سرعة الزمن، محاولين أن نجتاز تحدينا وتواجدنا في المكان، حيث مع ظل السكون وتشعب الغروب تركد ذرات الأثير، تلتصق بسطح الأرض، فتصبح خير ناقل لصخبنا وجلجلة عجلاتنا لمديات أبعد، لمسامع العدو. ذلك ما فطن إليه العدو قبل أن يفطن عليها آمر الوحدة.

تأمل الجميع أن تنتهي هذه الحرب اللعينة، ها هي تدخل عامها الرابع بلا هوادة. باتت النفوس تئن من الملل وتزفر القرف، وأصبحنا والآلة صنوان لا نشعر براحة أو حياة أو وجود. ماتت رهافة القلب، وغابت المباهج في مهدها، وأرهقت العيون من السهر والترقب. صرنا نتأمل أحلامنا التي فرت كالعصافير مع دوي المدافع وعبث الانفجارات، عبرت المفازة لتركن خلف خط المستحيل.

هكذا اختزلت الحرب سطور الحياة في عقد الوطن، تجرأت على وداعتنا، وشتتت أحلامنا وطرقنا ودروبنا. صرنا نلتمس عناوين الضياع في أحرف النزاع، في صرخة المدافع وشظاياها المتناثرة. أضحى التيه علامة فارقة في فكر الشباب، كأن الظرف طوى غلافه على سر استعصى علينا تفسيره. القسوة باتت تلمع في صدفية الأيام، تزداد إشعاعاً مع مرور الزمن، وحرارة الحرب المارقة كجدول من نار يجتاح ربوع حياتنا.

بتنا نشعر بتغير طعم الماء والهواء، وجرفتنا سنين الحرب إلى مهاوٍ مجهولة لم تخطر لنا ببال. كل منا غرق في كم هائل من الأوجاع، وتراكبت علينا هموم شخصية ووطنية واجتماعية ومستقبلية، حتى صار كل منا يدور في فلكه كقشة تجدلها دوامة العاصفة.

صرنا نعد ساعات نهجنا، نستنبط لحظة صفاء تعانق أحلامنا. العيون تتبع حلكة الغروب، تتأمل من تلك النجوم الغارقة في جوف السدم أن تبهج أمانينا ببريق يجزل الظلمة، أن ترفد النفس الأبية برجاء يناقض قسوة الظرف، أن تعيد لشفاهنا المرتخية البسمة، ولوجوهنا النضارة.

وفي خضم أعمالنا، منشغلين بتدبير أمورنا، يود كل منا اختصار الزمن في اختصاصه. نعمل كخلية نحل لإنهاء الواجب المناط بنا. ساحبات المدافع (عجلات الكاز 66) سطرت المدافع قرب مواضعها، والمدافع لا تزال مشدودة

بساحباتها. القداحون يعملون على قدم وساق لتنظيف وتهيئة مواقع مدافعهم، لتنصيبها في الحفر المخصصة لها كي لا تهتز عند الرمي. الآمر يتوسط الرعيل قرب موقع القيادة، يشرف على عمل الجميع كملكة النحل.

وبينما نحن منشغلون، باغتتنا تلك الإطلاقة المدوية في الأفق، فبتنا نترقبها بوجل. أحد أفراد صنف المخابرة كان زئغا بعيداً لربط موقع الرعيل سلكياً بمقر الفوج، وآخر توارى في الوديان لربط الموقع بالمرصد سلكياً ولاسلكياً، فيما الثالث رافق المعين علي والملازم والضابط المساعد جليل إلى المرصد، وبقي الرابع، الجندي الأول سبتي، برفقتي ليؤمن الاتصال مع تلك الجهات ويستقبل المكالمات إذا ما استجد أمر مهم في الجبهة.

الكل منشغل بإنهاء عمله، نتسابق مع الزمن خوفاً من لحظة لا ينفع فيها الندم، نكون فيها غير جاهزين للدفاع عن اللواء وعن أنفسنا. كل يعرف دوره وغايته في ذلك المكان، وكل منا يحمل عبء اللحظة التي قد تحدد المصير.

الوشوشة التي كانت تدور في أذهاننا هيَّ وشوشة غيرة وحرص واندفاع، تحثنا على أنهاء عملنا وترتيب أمورنا وتهيئة مدافعنا وتوجيهها إلى أهدافها الجديدة قبل أن يزف الوقت. تهيئة المدافع لها الأولوية لتأمن السلامة للجميع، تلك هي أهم المهام الواقعة على عاتقنا وعاتق الأمر خوفا من

التساؤل من قبل مسؤوليه، حينها كنت جاهزا تماما أنتظر من القداحين أن ينهوا مهامهم لتوجيه مدافعهم..

ضابط الراصد كان ينتظر مني تهيئة المدافع لتثبيت بعض الأهداف على الخريطة التربيعية، لذا كان يلح عليَّ الاسراع في العمل، القداحون منشغلون بتنظيف المكان قبل أن يفصلوا المدافع عن ساحباتها وتنصيبها في مواقعها ثم عليهم تفريغ الساحبات من اغراضهم من فرش ومستلزمات شخصية والعتاد المحمل بها، حيث عملهم فيه شيء من المشقة، لذا هم بحاجة لوقتٍ إضافي لتكملة مهامهم..

في خضم تلك الأوضاع الفوضوية وتنقل العجلات وهدير محركاتها؛ باغتتنا تلك القذيفة التي اشرنا لها، قذيفة مدفع ثقيل طائشة بعيدة المدى، عبثت بمخطط النهج الذي كنا نسير عليه، قلبت موازين الأمور واطيها على عاليها، مخرت الأجواء الساكنة بصخب هديرها وزعيقها، محذرة من خطر جلل قادم إلينا، في الوقت الذي به لازالت مدافعنا مكبلة خلف ساحباتها، والعتاد لازال محشور في صناديق محمولة على متن العجلات الرابضة قرب الملاجئ، فيما عجلة الإيفا المحملة بعتاد المهداد شديدة الانفجار كانت تقف في وسط الرعيل قرب موقع القيادة، تنتظر من القداحين إنهاء أعمال توجيه مدفعهم لتفريغ مخزونها من العتاد على الحضائر بالتساوي.

في تلك اللحظة الآثمة، حين تزاحمت الأهواء مع النوايا، كنا منهمكين في أداء مهامنا، غافلين عن نذر العاصفة. سقطت

القذيفة خارج سور الرعيل بأمتار قليلة، فدوّى الانفجار ليجذب انتباهنا ويقلب موازيننا. جاءنا العصف كوعيدٍ ثقيل، قبل أن نفيق من انشغالنا.

انبطحنا أرضًا، لم نكن مستعدين لاستقبالها. لم نغسل وجوهنا من غبار الطريق، كانت لازالت صفرة الغبرة عالقة بأهدابنا وشعورنا. محركات العجلات لاتزال تعمل، الكل منشغل في تهيئة المهام لرفع جاهزية الرعيل. سقطت القذيفة بعد وصولنا بنصف ساعة تقريبًا.

كنت حينها منشغلًا بإعداد خريطة الرمي ونصب ناظم التوجيه، بينما كان المخابر سبتي يؤمن الاتصال مع المرصد سلكيًا ولاسلكيًا، يحمل الجهاز على ظهره. الآمر يتفقد عمل القداحين، يفرض توجيهاته هنا وهناك. كنا ندور في دوامة العقدة، نحاول استخلاص الزبد من الشِكوة، نرفع جاهزيتنا لدرجة الاستعداد والمواجهة. الزمن يزحف، والعتمة أغشتنا، كنا في سباق محموم معها.

الكل منشغل بمماحكات الأخبار ومناكفات الإشاعات، التي تتضخم بين ألسنة الجنود، مقرونة بغليان الجبهة. كلٌ يرسم في ذهنه صورة لغده، بينما العدو يترصدنا، يود زعزعة عزيمتنا والنيل منا. كنا ندرك جيدًا أن القارعة إن وقعت، سنكون في قلب المعمعة. لا مفر من قعقعة السيوف ونحن نرتع في وسط الميدان. إن لم نسعَ خلف الكارثة، هي التي ستسعى هي خلفنا، ستلاحقنا وتُقحمنا في حيثياتها، تجعلنا جزءًا من قصصها

وعبثها. الحالة التي نحاول تجنبها ستغدو واقعًا لا مفر منه، عارمة، شاملة، فوضوية، تتجاوز الحد الذي نقف عليه. نحن منغمسون في صلب الموضوع، في الجبهة المتقدمة، لذا سنكون ضمن خيارات الفوضى، شئنا أم أبينا..

في أوج حرصنا على ترتيب أوضاعنا، باغتتنا قذيفة طائشة، تشق مجال الجو بصفيرها الموحش، كأنها تحمل نذرًا من الرهبة، تسعى لزعزعة ثقتنا، لإرباكنا، لامتصاص عزيمتنا. كانت استجابة مباشرة لجلجلة محركات عجلاتنا التي لم تهدأ، فسقطت على بعد عشرة أمتار فقط خارج سور الرعيل.

بسقوطها، تحولت الحالة من تنظيم إلى فوضى، كادت أن تنهي كل شيء في لحظة غفلة. هزّت الأرض والنفوس، شرخت العزيمة بشفرة الرعب، عبثت بالصمت، ونزف الأمان خوفًا ووجلاً. مزقت ثوب الطمأنينة، عصفت بالهدوء، وغرزت الرهبة في أعماقنا وهي تنثر شظاياها على كامل الرعيل.

احتقنت العيون بالصورة، واحتفلت الأجواء بجحيم الرعب، حتى غدت لحظة السقوط كرنفالًا من الصخب والهلع. تطايرت الغبرة لعنان السماء، تجاوزت روابي الجزع، واستوت الأقدار غير المتوقعة مع جنون الأذهان. أضحت الحالة حالكة، تنبئ بالشقاء في دواخل كل فرد.

انبجست ومضة شديدة، مزقت العتمة، شقت غشاء السماء، وبرقت كوميض برق، فيما بقيت ترددات الانفجار تنحدر في جوف السكون، تمطط أمواجَ الأثير لتزرع الرعب في

الاذهـان. جلـت العتمـة عـن المسـاء، وأحالـت الهـدوء إلـى فوضـى تتبـع صـدى دوي الانفجـار كهـدير رعـد، يحـذر مـن سـخط قـادم. انــبطح الجميــع أرضًــا، استســلموا لصــليل الشــظايا، مســلمين أمـرهم لله. كـأن العـدو قـد رصـد تحركاتنـا مـن هـدير العجـلات وهـي تطلـس الأرض وتـدرس السـبل. أحـدثت القذيفـة خلخلـة فـي ضـغط الهـواء، أولـدت سـخطًا وطنينًـا فـي الآذان، لـم تهـدأ تـرددات الصدى.

طغـى أزيـز الشـظايا المجنونـة علـى مسـرح العمليـات، خـدش وجـه السـكون، ونثـر الرعـب فـي المحـيط. كانـت الشـظايا تمـور مـن فوقنــا، تتبــع درجــات الغفلــة، تجــرد الأوصــال مــن العبــث والتراخــي، وتشــاكس العيــون الحــائرة بــدبابيس الحــذر. دفعنــا الرعـب للبحـث عـن كـوة أمـان نـدفن فيهـا أجسـادنا. ومـع انبطاحنـا، سـمعنا صـوت ربـت الشـظايا علـى الأرض كوابـل المطـر. لـم نسـتطع حمايـة أنفسـنا، لكـن الـرحمن سـورنا بالأمـان، إلـى جانـب سـور الرعيـل الـذي ارتفـع متـرًا تقريبًـا، فحجـز نصـف الشـظايا، وترك لنا نصف النجاة.

مـع سـقوطها المرعـب كانـت قـد اقتنصـت أحـدى شـظاياها جـادر عجلـة الإيفـا (غطـاء قمـارة العجلـة السـميك المصـنوع مـن قمـاش الكتـان) لتسـتقر فـي أحـدى صـناديق العتـاد المحمـل بهـا، ليشـتط النـار فـي زاويـة مـن الجـادر وفـي بعـض صـناديق العتـاد العلويـة الأمامية بسرعة البرق.

أرتفع خيط الدخان عاليا في الأفق برفقة هباب النار، بدأت النار تزحف بسرعة البرق على ثنايا الجادر وصناديق العتاد، كأنَّ الجادر والصناديق مشبعة برائحة البترول لمدى اشتياقه النار. كان لنا حظ بحيث الشظية لم تصب منتصف العجلة، وإلا عملت كارثة في وسط الرعيل، إنما اصابت الزاوية العليا الخارجية من مستطيل قمارة العجلة، وبذلك اصابت ستة صناديق الأولى من مجموع خمسين صندوقا من العتاد كل صندوق يضم قذيفتين من قذائف المهداد شديدة الانفجار..

الشظية لسعت جدران الصناديق الخارجية بتشوه جلدي خارجي دون أن تصل شررها لأكياس البارود داخل الصناديق، لذا اشتعلت النار بأخشاب الصناديق بسرعة النار المشتعلة بالجادر، كأنها أصيبت هي الأخرى بما أصابنا من جزع وخوف ورهبة.

كانت عجلة الإيفا المرافقة لنا هي بمثابة المخزن الممول للرعيل، معبئة عن بكرة أبيها بعتاد المهداد.. كانت جاثمة في وسط الرعيل قرب موقع القيادة، تنتظر دورها في تفريغ محتوها.. المنطقة عبارة عن هضاب وتلول تربتها مزيج من تربة ورمل وأحجار تكثر بها أنواع الأعشاب والأشواك البرية المبعثرة هنا وهناك من شوك وعاقول وخزاما ونفل وربله وشيح وأخرى لا أعرف لها أسماء، مع رفلة من الزهور الربيعية الموسمية مبعثرة في الأرجاء، ونباتات برية وشجيرات من طرفة وأثل وأخريات من سِعدة وحنظل، حيث

كنا في منتصف موسم الربيع الذي يبدأ باكرا، مع شهر شباط في تلك المنطقة.

البقعة التي وطئنا بها هيّ بقعة معروفة ومشخص تربيعيا من قبل العدو، تزورها قذائفهم بين آونة وأخرى، كما انها دائما ما تتعرض لعصف ريح شرقية مغبرة، بقعة تستعمرها الثعابين والحشرات الصحراوية من عقارب وخنافس سامة وسحالي. رغم موسم الشتاء إلا أنَّ الجو كان دافئا، بحيث درجات الحرارة فوق معدلاتها.

يفصل بين موضع مدفع وآخر مسافة 50 متر، أي أنَّ المسافة بين الجناح الأيمن والأيسر لموقع الرعيل بحدود 150 م تقريبا زائدا مسافة 20 متر متروكة من جهة السور المحيط بالموقع الذي هو على شكل دائرة قطع ناقص، بؤرتها موضع القيادة، فيما يقع موضع أمر الرعيل خلف موضع القيادة بمسافة 50 متر..

ما أن التعت النار بجادر الإيفا؛ حتى التمعت حكمة آمر الرعيل الملازم الأول عدنان باللحظة، حيث وجد من المجازفة حلا لتلافي الخطر المنبعث، والسيطرة على النار وعلى طبيعة المشكلة التي تفجرت بأحضاننا على حين غفلة، وذلك قبل أن تفلت زمام الامور من قبضة أيادينا ونصبح في عداد خبر كان. حينها لن نجد لنا ملاذ تحت مطرقة مدفعية العدو وغضب أكداس العتاد إذا ما تفجرت هي الأخرى.....

فـي تلـك اللحظـة الحرجـة، اسـتُدعي قسـم القـداحين، فقُسـموا إلـى مجمـوعتين: الأولـى انشـغلت بتفريـغ العجلـة مـن صـناديق العتـاد المعطوبـة ومحاولـة إخمـاد نيرانهـا قبـل أن تصـل إلـى البـارود، والثانيـة تصـدت للنـار المسـتعرة فـي غطـاء قمـارة العجلـة الكتـاني (الجادر).

كانـت النـار قـد تمـددت، التهمـت أطـراف صـناديق الخشـب، وغـزت ثلـث مسـاحة الجـادر العليـا. كنـا علـى شـفا كارثـة، لـولا حنكـة الآمـر وسـرعة بديهتـه. ففـي لحظـة كـادت فيهـا النـار أن تولـد مـن رحـم الأمـان، مـن العتـاد الـذي نحتمـي بـه، تجمـدت السـواعد، وتوقف الفكر، وبتنا نبحث عن مأوى أو نغامر بمصيرنا.

لكـن رحمـة الله سـبقت النـار، فألهمـت الآمـر قـرارًا شـجاعًا، إذ أوهـم الجنـود بـأن العتـاد المحمـل هـو مـن نـوع الـدخان، لا المهـداد، ليحـثهم علـى المجازفـة. فالـدخان ينفلـق ولا ينفجـر، أمـا المهـداد فيتشظى كالأمواس، قاتلًا كل من يصيبه.

انطلقنـا فـي سـباق مـع الـزمن، والنـار تحـاول أن تسـبقنا إلـى خـط النهايـة. كنـا لهـا نـدًا، نكبح جماحهـا، ونخنـق لهبهـا. حاولـت ابـتلاع العجلـة وموقـع الرعيـل، لكننـا دفعنـا بهـا نحـو وهـدة الأمـان، نحـاول كـتم صـليلها قبـل أن يفطـن إليهـا العـدو، وهـي تـدفع بنـا نحـو وهدة الخوف والارتياب.

كـان الصـراع أشـبه بلعبـة جـر الحبـل، حتـى تمكنـا مـن جرهـا وإخمـاد خطرهـا، قبـل أن تلفـظ سـخطها فـي جحورنـا. خمـدت أمـام

عـزم الجنـود، الـذين خـاطروا بـأرواحهم، فكـانوا فـي الموعـد، مجازفين، متحدين وهج النار.

لقـد تصـرف الجنـد بجديـة، كفريـق نمـل، لا يهـاب اللهـب ولا يخشـى المـوت. بـدأت القـذائف تنهمـر كـالمطر، والنـار تشـتعل فـي صـناديق العتـاد وسـط الرعيـل، لكـن الآمـر فـك شـفرة العقـدة، قائلاً:

- هيـا يـا أبطـال، أسـرعوا بإطفـاء النـار قبـل أن تحتـرق العجلـة بمحتواهـا. أنزلـوا الصـناديق المعطوبـة، لا تخافوا، لن تنفجر! إنها قنابل دخان.

فهـب الجنـود دفعـة واحـدة، يردمـون جـدار النـار، ويشـلون قـدراتها. زرع فـيهم الطمأنينـة، فشـحذ عـزيمتهم، وسـاهم فـي درء الخطـر فـي الوقـت المناسـب. أوهمهـم بـأن العتـاد آمـن، بينمـا الحقيقـة أنـه كـان كلـه مـن نـوع المهداد شـديد الانفجـار. وكنـت أعلـم بـذلك، لكننـي لـم أنـبس ببنـت شـفة، فكـان لا بـد مـن عمـل نواجـه بـه النار.

كانـت لهـذه العبـارة وقـع السـحر علـى الجنـود، بندائـه لهـم أوقـف نـزف الخطـر علـى خـط وقـوع الكارثـة، فـي الوقـت الـذي بـه كـان يقـف بذاتـه إلـى جانـب العجلـة التـي تتوسـط موقـع الرعيـل. كـان لوقوفـه فـي المكـان الخطـر رمـزا للشـجاعة فـي عـين الجنـود، ممـا دفعهـم نحـو المجازفـة، بسـيف حكمتـه وفراسـته جـز عنـق الكارثـة قبـل أن تكـون لهـا قائمـة مـن التبعيـات، قبـل أن تـنهض وتبصـق فـي الوجوه، قبل أن تشل مساعينا وتجتاز خط الخطر بـ ثوان فقط.

يقينا أنه جازف بحياته وحياة الجنود، وقد كان يدرك مدى حجم مجازفته بحياتهم.. لكن لا بد من المجازفة قبل أن تفقأ البصائر ويضيع رأس الخيط ونتيه في دوامة الحيرة، وقد لا نهتدي بعدها إلى النجاة. لولا المجازفة لامتثلت الرقاب لسيف الشظايا والقنابل القادمة من قبل العدو..

حيث في اللحظات الحرجة والحيرة؛ يتوقف التفكير عن الأبداع عند معظم البشر، ولكن هناك من تسعفه البصيرة في تخطي حاجز الخطر، وكان الآمر من هؤلاء الندرة. بفطنته تلألأت همم المراتب.

كان لابد من أن تصيب شرارة الفطنة كل من في الموقع، لما لها من بصيرة تحملهم على تنفيذ الامر على عجل. أحيانا المجازفة تصبح هي الحل الوحيد لإدارة الأزمة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. حيث في أواقات الحرجة؛ تصبح سلة الأمان تعادل سلة الخطر في كفي الميزان، لذا كنا نراوح في وسط تلك المعمعة، محاولين التشبث بأي طارئ ينقذنا.

تمت السيطرة على النار المولعة بصناديق العتاد بعد أن رميت على الأرض، فيما أنطلق بعجلة الإيفا سائقها علي ليركنها بعيدا عن مركز الرعيل بصحبة بعض الجنود المرافقين له للسيطرة على نار الجادر، ولتجنيب الرعيل خطورتها. حيث تم إخماد النار في غطاء الجادر، بعد أن دحسها سائقها في موضع دبابة قديم على بعد مسافة مائتي متر خلف سور الرعيل..

العملية برمتها لم تستغرق أكثر من خمسة إلى عشرة دقائق، تعرضنا خلالها لقصف شديد أنهال علينا كزخات المطر مع ولوج النار في النواظير الليلية للعدو، في الحقيقة غدونا هدفا سهلا لمديات نيران العدو التي اوهطتنا غلا بعد أن حاول أن ينال منا عبر أكثر من ثلاثين قذيفة أطرقها على رعيلنا، والتي والحمد لله كلها سقطت خارج سور الرعيل برحمة واضحة من الله عز وجل...

تحت ذلك القصف تكورنا تحت زخم القذائف وهيَّ تطرق الأرض وأنفسنا بذات الصدى، صارت تنطلق نحونا من جهات عدة، من اليمن واليسار والعمق، كلها صارت تصب جام غيضها وغضبها على رعيلنا. أزكمتنا رائحة البارود والفسفور المشع والغبرة المغتاظة التي عَبّرتْ على احتجاجها عن حجم الغل الذي صُبّ علينا. صحتْ السماء من غفوتها، هجرت الظلمة أوكارها تحت بريق القذائف الساقطة وقذائف الإنارة المتدلية من عنق السماء كقناديل إنارة متمثلة بقنابل التنوير، معلقة فوق رؤوسنا، تبدو بسحرها كأقمار تدور حولنا، مانحة الأجواء منظر بهيج، وكأننا في مهرجان عرس، وهو في حقيقته أقرب للمأتم..

جميع القنابل سقطت خارج سور الرعيل بأبعاد متفاوتة. كان للسور الترابي دور كبير بحمايتنا من شظايا القنابل المتفجرة إلى جانب رحمة الله الواسعة التي غطت الرعيل من شرور العدو.

مـع التفجيـرات المتكـررة هـرب السـكون مـن نافـذة الصـمت، لـم يعـد فـي الأفـق مـا يشـكم همجيـة الـرَّوْعَ الـدائر حولنـا والغـائر فـي أعمـاق نفوسـنا. الـذعر صـار يتفجـر مـن تحـت الأرض كالكمـأة المـدفون بهـا، وينـزل مـن السـماء كنيـازك ملتهبـة تحـرث وجـه العتمـة. أضـحينا نلـوذ بأرواحنـا بـين الصـمت والحيـرة والرعـب الـذي صـار يتعقبنـا ونحـن منبطحـون علـى الأرض وداخـل تلـك الكـوات المخيفـة.. حيـث الليـل بهجيعـه أعطـى للحـدث هالـة مـن البـروز بحيـث زادنـا هوانـا ورعبـا، فالأصـوات مـع سـكون الليـل تـزداد فخامـة وضـخامة ورعبـا لكثافـة الأثيـر، كمـا الانفجـارات خلخلـة الأجـواء بتشـعبات ترددهـا. والنـار اسـتفحلت فـي نـواظير العدر، لو كان الحدث نهارا ما فخم وما شغل فكر العدو بنا.

شـرعنا نهـرب بأرواحنـا خـارج حـدود ذواتنـا، إلـى حيـث نجـد الأمـان، خشـية أن نصـاب بوعكـة القـدر، كـأنَّ الرعـب قـد ركـب على ظهورنا كمراكب صيد يتجول بين نفوسنا المشعشعة.

كنـا نترقـب تلـك الرشـقات مـن أصـوات المـدافع المطلقـة نحونـا بشـيء مـن الخبـرة، بحيـث أعطتنـا الخبـرة حدسـا مميـزا فريـدا عـن نوعيـة القـذائف المطلقـة ومكـان سـقوطها، كانـت تخميناتنـا تتوافـق مـع الحـدث، كنـا نتبـع صـوت صـفير القذيفـة فنتجـاوز خطورتهـا بالاختبـاء، ولكـن لكثـرة الاطلاقـات التـي رميـت علينـا بوقـت واحـد، أضـاعت علينـا قـدرتنا علـى الحـس والحـدس بالقـذائف، ففقدنا حساباتنا.

كـان لأجـيم النـار وصـدى الانفجـارات وطقطقـة الشـظايا التـي هـزّتَ السـكون، رهبـة وانكسـارا فـي الأنفس، لشـدة وقـع جلجلتهـا على المشاعر والأحاسيس، مِحقت السلامة من الوجود.

بتلـك الاصـوات المفزعـة، المقرشـة والتـي لهـا صـدى واسـع فـي المخـيخ وداخـل الـنفس، كـان لهـا انعكاسـات شـديدة علـى الـروح الـذي نـزع سـمة الوقـار امـام خـرش اصـوات الانفجـارات وقَرَشَـها علـى الـذات، أخرسـت الالسـن، الانفجـار يصـيب خلايـا المـخ بشـلل لحظـي، تَعبـث بمكعبـات الـذهن، تربـك وتخلخـل رفوفـه. حيـث صـوت الانفجـار لا يشـابهه صـوت إطلاقـا، ولا تصـفه صـفة أبـدا، بحيث لزنيمه المغل تشل الأعصاب فتستسلم الفريسة لقدرها.

لازالـت تصـيخ أذنـيَّ تلـك الأصـوات المتكسـرة، المقـززة، تلـك التـي تـرعش الـروح مـن زنـيم قرقعتهـا وصـداها، لمـا لهـا مـن صـاخة تنفـر منهـا الـروح والبـدن، لمـا لهـا مـن ضـجر تقـرح الجروح بأثرها.

أنهـا حالـة مؤلمـة تشـعرك بشـبح المـوت شـاخص فـوق رأسـك، تشـعرك بملـك المـوت يقـف علـى عتبـة العمـر، لحظـات خلالهـا تشـي الفـرد بنسـيان كـل شـيء، سـوى تمسـكه بـالروح الهائفـة وذكـر الله، دون أن يمسـك بضـفائر سـرها. يـرى الـروح كعصفورة شاردة أمام عينيه ولا يقوى على إيوائها...

لحظـات مـرة مـرت علينـا، هـي أقـرب اللحظـات التـي تقربـك إلـى التوبـة والبـاري عـز وجـل، حينهـا يقـرأ المـرء مـا تيسـر لـه ممـا يحفـظ مـن سـور وأدعيـة، تلطـف شـكل القناعـة لديـه بصـيغ

الرحمة، عسى أن يتجنب القدر الدائر في محيطه... صرنا نتحرك بوجل، نتأهب للصدف والمفاجئات الغير مقروءة، نتجنب الخروج لقضاء حوائجنا، تجببا وخوفا من أن ترصدنا المفاجأة. فالأمان ذاب كالملح في موج الدخان المتصاعد.

بعد تلك الواقعة بأسبوع تحركت وحدتنا من القاطع لنكون بمواجهة منفذ نهر الطيب من نقطة دخوله الأراضي العراقية.

*****

كان يوما قمطريرا جردتنا من الشعور بالحياة رغم سلامتنا، حينها شعرنا بنهايتنا قد أزفت، لازال طنين القنابل تخرش الذاكرة المتفجرة ترن في اذنيَّ بأزيزها القرش المزعج، حيث لها وقع على طبلة الأذن كصوت انكسارات متتالية ترعش البدن وتكسر كريات الدم الحمراء في الجسد. كنا قد نجونا بأعجوبة وبرحمة من الباري.

يا ترى من أدار تلك الوقائع لينقذنا من الموت؟ أليس في الأمر شيء أو كثير من خفايا الأمور لا ندركها، كنت أهجس بالرحمة حاضرة أينما أكون، وتلك هي نعمة التي تحسستها، هي نغمة اللغز الذي ابحث عنه في هذه الرواية والتي لا ندرك اسراره وصفاته. كلما ابتعد قليلا أعود وأرجع إلى واقع الرؤيا التي اشعر بها حمتني من كثير من المواقف.

كان لابد من أن تصيب شرارة الفطنة كل من في الموقع، لما لها من بصيرة تحملهم على التنفيذ الامر على عجل. أحيانا

المجازفة تصبح هي الحل الوحيد لإدارة الأزمة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. حيث في أواقات الحرجة؛ تصبح سلة الأمان تعادل سلة الخطر في كفي الميزان، لذا كنا نراوح في وسط تلك المعمعة، محاولين التشبث بأي طارئ ينقذنا.

الخوف والجبن والخنوع والاستسلام لمقدرات حدث جلل كالذي وقع بنا، تؤدي إلى تشجيع الكارثة. كان لابد من تحد صريح لقدراتنا في مواجهة الأزمة. التنصل من المواجهة، يعني الاستسلام للقدر.

قد لا تكون الصورة واضحة للبعض ولكن هذه هي الحقيقة.. كانت العجلة تحمل أكثر من 50 صندوقا من العتاد وكل صندوق يحتوي على قذيفتين من عيار الثقيل 120ملم مع حشوتي بارود سريعة الاشتعال ملفوفة على عنق كل قذيفة.. أن لم يتم السيطرة على النار بالوقت المناسب كانت ستحل الكارثة بنا مع 100 قنبرة هاون ثقيل كل منها توزن خمسة كيلوغرام من الحديد المشظ، كانت تلفنا في دوامتها. ناهيك عن العتاد المحمل بعجلات الكاز66 الساحبة للمدافع، والجاثمة قرب مواقع القداحين، ناهيك عن ما ستسقط علينا من أمطار القذائف العدو التي سيمطرونا بها لدعم النار المتأججة...

بتصرفه البليغ علمني درسا في الحياة، علمني أن أستغل الثانية قبل أن ينفذ زمنها، لأدرك الهدف المراد، لأن في الثانية المراقة تكمن فرص الوصول للحلم والسعادة.

خلال محاولتي ركوب القطار برفقة أبني متجهين لستوكهولم من محطة جنيستا، استحضرت موقف الآمر عدنان رغم مرور أكثر من ثلاثين سنة على الحالة، حيث كان لابد من استغلال الثواني قبل أن يمرق زمنها، والذي كان الوقت يشير إلى بقاء دقيقة واحدة على تحرك القطار من محطته، الذي يعمل بنظام الزمن. بينما كنا نحتاج لثلاث دقائق لإنجاز مهامنا والوصول اليه.

حينها قال لي أبني وهو يتميس في مشيه:....

- لا تحاول يا بابا، لا تستعجل، لن نستطيع أن ندرك القطار، نحتاج لعدة دقائق لنقتني التذاكر، وها أنت ترى قد حان وقت تحرك القطار.

حينها تذكرت موقف الأمر وهو يشد همة الجنود فنهرته وصرخت به...

- هيا أسرع بخطاك، لا تتكاسل، إلا ترى بأن القطار لازال واقفا!

.. وكأني تذكرت مشهد الحريق أمام عيني. حينها أسرعنا واستطعنا من اقتناء تذاكر السفر، ومع ولوجنا لداخل عربة القطار تحركت عجلاته.... حينها لمته قائلا: تعلم يا أبني! عليك أن تستغل اللحظة قبل ان تنفذ، طالما الوقت لازال بيدك لا تتكاسل.

لإدراك الـذات الداخليـة التـي تعمـل بالخفـاء بعيـدا عـن الـذات الخارجيـة التـي نلـتمس أفعالهـا، كـان لابـد مـن عمـل جـدي يعـزز الثقـة التـي نتوخاهـا، تلـك التـي نراهـا كخيـال تـدور بأروقـة الـذهن. كـان لابـد مـن تعزيـز الـنفس بنتـائج محسوسـة، حيـث الحـرب خدعـة، والخدعـة تبطنهـا فكـرة، والفكـرة تلهمهـا شـجاعة، والشـجاعة تـديرها عزيمـة، والعزيمـة تحـث علـى الإقـدام. إذا لابـد مـن اسـتغلال الفطنـة، فهـيَّ سـر مـن أسـرار الحـرب، وصـورة مـن صور الفوز بها.

بمجازفتـه كـان قـد أنهـى عـزم القذيفـة ونيـة العـدو معـا، قضـى علـى بـوادر كارثـة عميـاء كـادت أن تفتـك بنـا، كـادت علـى وشـك أن تجـرف الرعيـل إلـى وهـدة الصـمت الأخيـرة.. مـع بـدأ عصـف ثورتهـا تمكنـا مـن أطفـاء شـرر النـار، فلـو تأخرنـا قلـيلا لعمـت الفوضى، لعملت بنا ما عملت، لكبتت جماحنا.

كنـت أدرك نـوع العتـاد المحمـل داخـل عجلـة الإيفـا، وحـين سـمعته يـوهم الجنـود بـأن العتـاد مـن نـوع الـدخان لصـمت فـاهي، وجفـت عينـاي وهـي تنظـر إليـه بغرابـة وحيـرة، فـي الوقـت الـذي بـه أيدتـه بهواجسـي ومشـاعري علـى مـا سـعى إليـه. حينهـا شـعرت بـه قـد خـرج عـن المـألوف وتخطـى صـيغة التقليـد، العمـل الـذي أنجـزه بثـوان أحتـوى علـى أبـداع ذهنـي وفنـي راق الجميـع، رغـم صـعوبة تفسـير الحالـة حينهـا، إلا أنهـا كانـت مميـزة بنتائجهـا، كـان العمـل فـوق المعتـاد، لـن يـدرك أهميتـه إلا محنـك وعبقـري. تهجـس بـه كمـن سـطر فكـره فـي لوحـة جداريـة جذابـة تـوهم الناظر بفتنتها.

...كانت النار لاتزال في أول سعيها، لم تميس حدود الخطر، كانت الكارثة تسعى خلفها، لسعت قشور بعض صناديق العتاد وجانب من فراء غطاء الجادر. لذا تمكن القداحون من وقف نزف الخطر...على الرغم من أن العدو حين شاهد الدخان يتسلق سلم البروج مع شرر النار المتطايرة في نواظيره الليلية؛ شد من عزمه، زاد من غله، صار يمطر علينا قذائفه التي باتت تتساقط في محيط الرعيل خارج سوره دون أن تصيبه بالمباشر.

حينها كنا قد ولجنا في عنق الغسق، بتنا نعوم في شواطئ الدماسة، لم يصل بنا الزمن بعد لحندس العتمة. حينها كنت مشغولا في تهيئة خريطة توجيه المدافع لأهدافها.

المشكلة هي أننا لازلنا لم نكمل توجيه مدافعنا، غير جاهزين لاستقبال المفاجآت، لازال العتاد مكدس في صناديقه ومحمول في العجلات، لازالت المدافع معقوفة، مربوطة بساحباتها، الملاجئ قديمة مهملة، مهلهلة، متروكة، غير مهيأة للاستخدام، نشعر بها كأوكار ثعابين وعقارب ووطاويط، كان الوقت قد دج في عنق العتمة، الرؤية ضعيفة، كنا نعمل على ضوء القمر الواهن.

كنا نتهيب من إشعال شمعة أو قدح زناد أو إضاءة مصباح، خوفا من أن يشظ الضوء في أجهزة المراقبة الليلية (النواظير الليلية) والتي تعمل تحت أشعة الحمراء، وبالتالي يسهل على العدو مهمة كشف تواجدنا وتحديد مواقعنا وتحركاتنا.

لقد رابتنا الملاجئ؛ حيث كنا نعيش في حالة توجس متذكرين ليلة أمس التي فاضت بكم هائل من العقارب. لازالت الفكرة تدور في مخيلتنا، نرتعب من دخول الملاجئ، خوفا من لسعة العقارب وغدر الثعابين، لازلنا هيوبين من ثقل ليلة أمس التي صاحبنا الوجل في استراحة رحلتنا.

في الحقيقة أصبحنا أشبه بلقمة سائغة في فم العدو لولا أن غض القدر طرفه علينا، ود العدو ابتلاعنا على حين غفلة، لكن الرحمة نزلت كخيمة أمان على الرعيل بالوقت المناسب، منعت شظايا العدو من أن تنال منا. بإطلاقة دقيقة، كاد العدو أن ينهي وجودنا.. لكن بقدرة الله شطت قذائفه خارج محيطنا، لم تلحق الأذى بنا...

لحظات يعشو بها البصر، تشعرك بضعف كبير في البدن وانهزام في الإرادة المهزوزة. كأن هناك حاجز وهمي يفصل بين الشخص ودنياه، تراه ولا تراه، حاجز أشبه بالزجاج، عديم اللون لا تستطيع أن تعديه لجهة الثانية الآمانة..

لحظات مرة مرت علينا، صرنا نتحرك بوجل، نتأهب للصدف والمفاجئات الغير مقروءة، نتجنب الخروج لقضاء حوائجنا على بعد أمتار عن مواضعنا، تجببا وخوفا من أن ترصدنا المفاجأة. فالأمان ذاب كالملح في موج الدخان المتصاعد.

إذا النار المنبثقة تصبح عاملا مساعدا لكشف محيط الهدف لمسافات بعيدة ضمن دائرة الضوء التي تنتمي إليه، أي أن الضوء المشظى يصبح ككاشف ليلي كمصباح في اجهزة

النـواظير الليليـة تكشـف الأجـواء المحيطـة بالهـدف، ناهيـك عـن طبيعـة الكشـاف الـذي يعمـل علـى طاقـة الحـرارة المنبعثـة مـن الأجسام فيكشف حدودها ومحيطها.

مـن ناحيـة أخـرى ظـل المعـين علـي والضـابط المسـاعد جليـل يتابعـان الحالـة مـن المرصـد، مـن خـلال اتصـالهم بـي عـن طريـق المخـابر سـبتي للاطمئنـان علينـا، جـردهم القلـق مـن مهمـة مراقبـة العـدو، أنصـب اهتمـامهم فـي مراقبـة موضـعنا وسـلامتنا. كـان المخـابر سـبتي منزويـا معـي تحـت سـقف أحـد الملاجـئ المتروكـة، درئا لخطر شظايا القنابل العشوائية المنهالة علينا.

خـلال انبطـاحي علـى الأرض مـع سـقوط القذيفـة الأولـى كنـت قـد جرحـت فـي بطنـي بـأثر شـظية قديمـة، بعـد أن تخمـد نـار الشـظية تصـبح كجـذاذة تـؤذي مـن يتعثـر بهـا. ونحـن منبطحـون كانـت قـد تنـاثرت الشـظايا علينـا كوابـل مـن المطـر، كنـا نسـترعي الانتبـاه إلـى وقـع سـقوطها وصـوت تصـادمها فـي ادمـة الأرض، فـلا منـاص للهـرب مـن المصـير، حينهـا كـل منـا سـلم أمـره لله تعـالى داعيا السلامة.

بقينـا فـي موقعنـا هـذا مـدة أسـبوعين، وفـي الأسـبوع الثالـث تـم اسـتدعاء أمـر الرعيـل لموقـع قيـادة الفيلـق للتشـاور فـي أمـور سرية، ليخبر بضرورة التحرك لموقع جديد.

بعـد تحولنـا لموقعنـا الجديـد تبعتنـا مصـيبة جديـدة منـع الله وقوعهـا. ونحـن نهيـئ موقـع القيـادة الجديـد برفقـة زميلـي علـي، أطرقتنـا مـدافع العـدو بوابـل مـن القـذائف ذات العيـار الثقيـل بلغـت

اربعة عشرة قذيفة ثقيلة وفي زمن قياسي لا يتجاوز عشرة دقائق، بحيث سقطت جميع القذائف في داخل محيط الرعيل، الذي هو عبارة عن دائرة قطع ناقص بطول نصف قطر 50 متر...

حيث بان لنا بأن الموقع مرصود من قبل العدو ومشخص تربيعيا. أحدى القنابل سقطت على بعد متر واحد من باب الملجأ الذي نحتمي به، أخرى على بعد أربعة أمتار بعد أن تجاوزت الملجأ، علما بأن الملاجئ متقاربة عن بعضها، بحيث ملاجئ القداحين مع موقع القيادة تمثل مقطع دائري بزاوية 120 درجه وبمسافة 40 متر، إذا ما حسبنا موقع القيادة يعتبر بمثابة مركز الدائرة.

خلال الاسبوع الثاني تبادلت الموقع مع المرصد برفقة المخابر سبتي. حينها لاحظت مدفع إيراني من نوع 106 كان يشاغل الجبهة بعد الساعة الخامسة مساء من كل يوم، وكان قد سبب إزعاجا للمشاة وخاصة إذا ما علمنا بأن موقع العدو يعتلي مواقعنا.

ما أن بدأ يقصف المشاة أتصل بي آمر الفوج وطلب مني معالجة المدفع الإيراني على وجه السرعة، فقلت له خلال ثوانٍ يجهز الطلب، لذا دون أن اعرف موضع المدفع الإيراني بلغت موقع القيادة برمي هدف علي المسجل في لوحة التعريف.....

وبعد أن جهز المدفع اكتشفت بأن موضع المدفع الإيراني يبتعد عن موضع هدف علي بمسافة كيلومتر تقريبا، حينها أتصل بي المعين علي ليخبرني المدفع جاهز للرمي...

فلم يعد هناك من جدوى تغيير الإحداثيات للعجلة التي كنا عليها من جهة، وقد يأخذ عليَّ عدم دقتي في اختيار الأهداف من جهة أخرى، لذا قلت له أرمي.....

ومع ترقبنا سقوط القذيفة وإذ بها تسقط على موضع إحداثيات المدفع الإيراني تماما، لتغرق المدفع الإيراني في عصفها وغلها، حينها أخذتني النشوى بدقة الرمية... مع سقوطها أتصل بي آمر فوج المشاة ليثني عليَّ ويشكرني على دقة الرمية وسرعة استجابتي لطلبه في إسكات المدفع الإيراني، كما طالبني راجيا بتكرار الرمية....

لم أستطع أن أقول له بان المدفع أخطأ بتحديد الهدف، فجاءت النتيجة مطابقة لرغباتنا وأهوائنا، أنها الصدفة ليست إلا، فسقطت القذيفة بشكل مباشر على موضع المدفع الإيراني لتسكت هديره مدة ثلاث أسابيع تماما...

ربما أثرت به تأثيرا مباشرا فشلت قدراته...

لم أستطع ذكر الحقيقة لأمر الفوج، لأن ذلك يقلل من شأننا كمدفعية ويضعف إمكاناتنا أمام نظره، لذا احتفظت بالسر لنفسي.

وعندما طلب مني تكرار الرمية، نقلت رغبته لموقع القيادة، وأنا تغمرني النشوة أمامه، وبذلك أخبرت موقع القيادة بتكرار الرمية مع ذات المدفع....

فبقيت أنتظر مع انتظار آمر الفوج لزيادة الغل في صفوف العدو، ومع ترقبنا كان المدفع قد رمى قذيفته لتسقط على هدف علي الحقيقي، أي على بعد كيلومتر من موضع المدفع الإيراني يسارا، صار آمر الفوج يلومني ويعاتبني على الرمية الخاطئة، فقلت له:....

- عفوا سيدي؛ بعد كل رمية المدفع يهتز فيفتقد توجيهه، لذا فهو بحاجة لدقة توجيه جديدة.

صرت اضحك على الطرفة التي أحدثتها الصدفة دون قصد، لحظة لن أنساها، كما أن المدفع الإيراني غير موضعه القديم. هههههههههه.

ما أن انقضت عشرة أيام حتى شن العدو هجوما واسعا على قاطع شرق دجلة جنوب قاطع الطيب... حينها جاء أمر تحركنا لقرية البيضة، بعد مرور ثلاثة أيام من عدوان العدو على قرية البيضة والسودة ضمن قاطع شرق دجلة، والتي سميت بمعركة **تاج المعارك**..

قاطع شرق دجلة هو قاطع محاذ لقاطع الطيب من الجهة الجنوبية، وهو قاطع مشترك بين الفيلق الثالث والرابع المحيط

بهور الحويزة. وذلك بعد أن توضحت للقيادة مآرب العدو في شهر آذار 11\03\1985.

ولزيادة الضغط على قواتنا في قاطع شرق دجله وفك الحصار عن قواته التي حوصرت من قبل قوات الفيلق الثالث من الجنوب والفيلق الرابع من الشمال، فتح العدو جبهة جديده على قاطع جلات مقابل مدينة علي الغربي والتي تبعد شمال جبهة الطيب بحدود 120 كم تقريبا.

2- تاج المعارك

القاطع الشرقي لمعركة شرق دجلة

المعركة الرئيسية دارت في قاطع شرق دجلة، الممتد من جسر السويب جنوبًا (الحد الفاصل مع الفيلق الثالث) حتى مناطق سلف مريبي وسلف أبو حديدة شمالًا (الحدود مع الفيلق الرابع جنوب شرق الطيب).

طبيعة الأرض في شرق مدينة الكحلاء وشمالا هي أرض رخوة مسطحة مجاورة لهور الحويزة، تعتبر أرض نزة، أرض رخوة مسطحة، مجاورة لهور الحويزة، وتُعرف بأنها "نزة"، أي غير صالحة للعمليات العسكرية الثقيلة.

يمتد القاطع عبر بركة السودة وبركة البيضة، وهما قريتان داخل الهور، وتتميزان بأرض مكشوفة غير مغطاة بالقصب والبردي بسبب عمق المياه. ينتهي القاطع عند مجرى نهر الطيب، ويشمل هور الحويزة الذي يمثل أكثر من 60% من مساحة القاطع.

الشريط اليابس يمتد بين نهر دجلة وحافات الهور، ويتسع شمالًا عند قلعة صالح ويضيق جنوبًا حتى القرنة. في المناطق الوسطى، خاصة بين ناحية العزير ودورة الحريبه، لا تتجاوز المسافة بين الهور والنهر 2.5 كم.

الدفاعات والتحصينات

القاطع الأول (من السويب إلى البيضة): خط دفاعي بسيط عبارة عن سدة ترابية واحدة، بسبب رخاوة الأرض وضيق المسافة بين دجلة والهور.

القاطع الثاني (من الكسارة إلى سلف أبو حديدة): لا توجد فيه سدادات ترابية. إضافة لقلة القطعات المتواجدة في القاطع بسبب طول جبهة الحرب كما اشرنا سابقا. إهمال القيادة للقاطع؛ لعدم صلاحية الأرض لتكون مسرحا لعمليات قتالية.. أما القسم الثاني من القاطع وهو الجزء الشمالي يبدأ من الكسارة وحتى الحدود الفاصلة مع الفيلق الرابع عند سلف أبو حديدة، لا توجد في هذه البقعة سدادات ترابية.

القرى ضمن القاطع على حافة الهور: أم سبية، أم فصيمه، الزجيه، الحصان، سلف أبو حديدة، سلف مريبي.

داخل الهور: السودة، البيضة، الصخرة (هُجرت وانضم سكانها للقرى الأخرى قبل الغزو).

التحصينات الترابية

تم أنشاء عِقود دائري الشكل على طول سدة الهور ـ منها عِقد رئيسي بقطر (400) م يمتد نصف قطر العقد داخل الهور والنصف الثاني إلى الخلف على اليابسة، تسع لسرية مشاه (بحدود 120 مقاتل) في كل من البيضة والصخرة، وفي نهاية لسان العجيرده، الرشيدة، الروطة، الهويدي، السويب، الزرداني... كما تم أنشأ بين كل عقدتين كبيرتين عقدة صغيرة

تقع على بعد ثلث من المسافة بينهما، قطر كل منها (200) م يمتد نصف قطرها داخل الهور، تسع كل منها لفصيل مشاة(بحدود 30 مقاتل).. تم توزيع الأسلحة الخفيفة داخل هذه العقود، مع مفارز إنذار مبكر على زوارق وطوافات.

أما التهيئة بالعمق العراقي كانت على مسافة بين (400 – 500) م ، حيث تم انفتاح مقرات الأفواج والاحتياط والهواوين على مسافات متقاربة من الهور. أما المدفعية الثقيلة فأنفتح قسم منها شرق نهر دجلة والباقي ذوات المديات البعيدة فتحت غرب النهر على حسب المتطلبات التعبئة..

تركن في هذه المنطقة العديد من القرى المسكونة ضمن هذا القاطع هي (أم سبية وأم فصيمه والزجيه والحصان وسلف أبو حديدة وسلف مريبي) وتقع جميعها على حافة الهور، أما قرى السودة والبيضة والصخرة تقع في عمق الهور، وتلك كانت قد هجرها أهلها وأنظم سكانها إلى تلك القرى المارة ذكرها.

دائما ما كان العدو يهجم بحجم لواء أو فرقة على بقعة ما من باب جس النبض، ففي حالة أستطاع أن يفتح ثغرة في صفوف قواتنا فأنه يطور هجومه ويزج بباقي قوات الهجوم الرئيسية ويتوسع من خلاله، وفي حالة فشله؛ ينسحب ويجرب الحالة في قاطع آخر. كما أنه دائما ما كان يستغل موسم الشتاء أو نهاياته لطول فترة الليل، حيث يستطيع أن يناور خلاله لضعف إمكاناته نهارا مقارنة بقواتنا، فالقوات العراقية تعتمد على

السلاح الجوي نهارا والذي تمكن من تحطيم سلاح الجو الإيراني مبكرا، وذلك بعد مرور سنتين على بداية الحرب.

الهجوم تم على ثلاثة محاور مستهدفة الألسنة الترابية الثلاثة في هور الحويزه " لسان عجيرده وهويدي والزرداني" التي أنشأت لعزل مياه الهور عن نهر دجلة، إضافة لذلك تعتبر مصدات لأي هجوم مقتبل كون هذه المنطقة مغمورة بالمياه يصعب الاقتتال فيها.

في صولته الأولى، باغت العدو الإيراني المواقع الدفاعية العراقية، فاجتاحها كالسيل، حتى بلغ الطريق العام الرابط بين العمارة والبصرة، بمحاذاة هور الصخيريجة، جنوب العزير وشمال القرنة، عبر إنزال جوي نفذته المروحيات. وقد تحقق له هذا التقدم بفضل خدعة لاسلكية محكمة، أربكت الاستخبارات العراقية، فشُتّت الانتباه نحو قاطع الطيب، بينما كان الهجوم الحقيقي يتسلل من شرق دجلة.

استعان العدو بتقنيات غربية، فجلب طوافات فلينية عالية الضغط، رُبطت وشُكّلت منها جسور عائمة، عبرها مرت العجلات الخفيفة المحملة بالأسلحة الساندة، من هواوين ورشاشات ثقيلة، ومدافع مضادة للدبابات، وحتى راجمات الصواريخ. كما زجّ بالضفادع البشرية، الذين تسللوا خلف خطوط الدفاع، ليباغتوا القوات العراقية من الخلف.

كانت المعركة في هذا القاطع أشبه بمسبحة، حيث التف العراقيون حول العدو من كل الجهات، ولم يتركوا له سوى فتحة الهور التي دخل منها، ليجد نفسه مضطرًا للانسحاب منها، مهزومًا منكسرًا. فقد استغل الإيرانيون ضعف تلك البقعة في حزام الجبهة، حيث معظم القوات المدافعة هم من قوات الاحتياط والجيش الشعبي. كما يقع ثلثا هور الحويزة داخل حدودهم، فكانت نقطة انطلاقهم. سرعان ما تحول المكان إلى فخ قاتل. كانت القوات الإيرانية قد وضعت نفسها في عنق الزجاجة.. لصعوبة نقل الآليات الثقيلة عبر الهور إلا ما تيسر لها مما ذكر.. إضافة إلى جل قوة الجيش العراقي كانت متمركزه جنوب وشمال موقع الحدث.

وجد العدو نفسه في أرض مكشوفة، بلا تضاريس تحميه، ولا وديان تخفيه، أرض رخوة، نزازة، حتى أن القذائف كانت تغور فيها دون أن تنفجر. فاستعاض العراقيون عنها بقذائف الانفلاق الجوي، التي تنفجر في السماء على ارتفاع 100 – 150 متر، فتسقط شظاياها كالمطر الحارق، تحرق كل ما تحتها. بتلك القذائف، وبالطوافات السمتية، بدأت القوات العراقية تصطاد فلول العدو، واحدًا تلو الآخر، دون أن يملكوا ردًا، فقد حُرموا من أسلحتهم الثقيلة، وتاهوا في أرض لا تعرف الرحمة. الجندي الإيراني بات معزولا عن القيادة، تائهًا بين العدو والهور، لا يعرف كيف ينجو، ولا إلى أين يتجه.

الجسور التي عبر منها باتت بعيدة، والمظليون الذين أُنزلوا غرب دجلة محاصرين بين القوات العراقية والنهر. فدخلوا في دوامة من التيه، لا يعرفون كيف يلملمون صفوفهم، ولا كيف يفرّون. لقد وضعتهم القيادة الإيرانية في بوتقة نار، بين كماشتين: من الجنوب الفيلق الثالث، ومن الشمال الفيلق الرابع، مدعومًا بالحرس الجمهوري والفرقة المدرعة العاشرة.

لم يبقَ للعدو سوى فجوة صغيرة في عمق الهور، انسحب منها بعد أن كُسرت شوكته، وتهاوت معنوياته، فبات كالمسطول، لا يدري أين يتجه. أضحت القذائف العراقية تسقط ضمن دائرة التماس للقوات العراقية المقابلة لها من الجهة الأخرى، بعد أن تقدمت على العدو وحاصرته من الجنوب والشمال. كانت المعركة معركة حاسمة، سريعة، قُتل منهم الكثير، واستسلم الكثير، وتركوا جثث قتلاهم وآلياتهم تحترق، فارّين دون أن يلتفتوا إلى جرحاهم..

لقد تصدت قوات الحرس الجمهوري والفرقة العاشرة بشراسة لتغلغل العدو في شرق دجلة، خاصة المظليين الذين أُنزلوا غرب النهر لم ينجو أحدا منهم. فطُوّقوا بكماشة محكمة من الفرقة الخامسة والسادسة، وقوات شرق دجلة، والفرقة الرابعة عشرة، فكانت المباغتة والمناورة سيدة الموقف، استطاعت من قتل وأسر المئات منهم، ربما آلافا من قوات العدو الأُخَر تقهقرت وتم دحرها في تراجع مستمر إلى الحدود الدولية، تاركين آلياتهم تحترق في أماكنها، كان ذلك كافيا لإعادة لملمت

الصفوف وشن هجوما مقابلا لدحر العدو نهائيا خارج الحدود.... وانتهت المعركة

ورغم تعقيد مسرح العمليات، لطبيعة الأرض المغمورة بالمياه، وضعف الدفاعات، وغياب الإنذار المبكر، إلا أن بسالة المقاتل العراقي، وحسن التصرف في الميدان، قلبت الموازين، فاندحر العدو، وتقهقر إلى الحدود، تاركًا خلفه آلياته تحترق، وجنوده بين قتيل وأسير.

عانت القوات العراقية خلال المعركة بسبب تعقيد مسرح العمليات الناتج عن طبيعة الأرض الطوبوغرافية. فقد أُعدت الخطة بشكل مستعجل وغير متكامل، في منطقة عمليات واسعة مغمورة بالمياه، تفتقر إلى الدفاعات المتماسكة والعميقة، نتيجة لطبيعة الأرض النزازة.

كانت معظم الوحدات المدافعة من قوات الاحتياط، تفتقر إلى التدريب الكافي للقتال في مثل هذه المناطق الرخوة والمعقدة. أما خط الدفاع الثاني، فكان يتألف من وحدات الجيش الشعبي، وهي تشكيلات مدنية غير نظامية، وقد اتسم هذا الخط أيضًا بالضعف وغياب العمق الدفاعي.

إضافة إلى ذلك، لم يتم إنذار القطعات المدافعة بمحور الهجوم المحتمل، إذ كانت الأنظار مركزة على قاطع الطيب ضمن قاطع الفيلق الرابع. وقد استبعدت القيادة العراقية احتمال مجازفة العدو بالهجوم عبر منطقة الهور، نظراً لافتقاره إلى المعدات اللازمة لنقل الأسلحة الثقيلة عبر هذه الثغرة. لذا

اعتمد العدو في هجومه على زخم المشاة والأسلحة الخفيفة، مثل الهواوين والمدافع المحمولة.

وفي محاولة لفك الطوق عن قواته المحاصرة شرق دجلة، فتح العدو ثغرات جديدة في قواطع أخرى، حيث اخترق الحدود في قاطع جلات شمالًا، على بعد 120 كيلومتر من مسرح العمليات الرئيسي، مقابل مدينة علي الغربي العراقية. وتمكن هناك من السيطرة على التلول العراقية وإزاحة قوات الجيش الشعبي السوداني منها.

3- حركة وحدتنا.

بعد ثلاثة أيام من بدأ المعركة في منطقة الهور جاء أمر تحرك وحدتنا من قاطع الطيب لقاطع شرق دجلة وتحديدا لجبهة قرية البيضة التي وقع عليها الهجوم الرئيسي، كان ذلك في يوم 14\3\1985...

تحركنا فجرًا من مواقعنا في جبهة الطيب، متجهين نحو قاطع شرق دجلة. وما إن بلغنا السيطرة الرئيسية للطيب، المعروفة بسيطرة الفيلق الرابع قرب الشارع العام المؤدي إلى البصرة، حتى عززتنا قيادة الفيلق ببرقية مستعجلة، على ضوء تطورات الموقف في جبهة القتال، تأمرنا بتغيير وجهتنا شمالًا نحو قاطع جلات – العزيزية، مقابل مدينة علي الغربي، بدلًا من التوجه جنوبًا نحو قرية البيضة. فقد أشارت البرقية إلى

دحر قوات العدو في شرق دجلة، وهي في طور التقهقر والتراجع المستمر.

مع أولى خطواتنا في التحرك، شعرت وكأن قدميّ تكهربتا بإشارة داخلية تنذر بجديّة الاشتراك في المعركة. ولأنها كانت أول مشاركة فعلية لي، كان لردة الفعل وقعٌ خاص في القلب. سرت مع نبضات قلبي، وانشطت روحي وجسدي لفرط حساسية الموقف، فخلجت حدود الذاكرة بلحظة مستذكرة طيبة، حنان الوالدين، الحبيبة، ورفقة الأصدقاء وصور الديرة والمحلة...

هالة من الشوق أظلّت الفؤاد، وغمرت الحدق بفيض من الحنين لأيامٍ خلت، لأجواء البيت والألفة، للوالد العزيز والوالدة الحنونة، للحبيبة الغالية التي رقّت الروح لنضارة وجهها وعطفة فؤادها، للوجوه التي منحتني شخصيتي وهويتي وسعادتي وتشبثي بالحياة. كان لا بد من تذكرهم وتأملهم، فبات الحنين ينزّ في ربوعهم.

هوت بي الذاكرة إلى سنوات غائرة في عمق الماضي، بهت لونها في لوحة الذاكرة، لكنها سجلت حضورًا مميزًا في سجل الطفولة والبراءة، حيث تاه الظن في مداخل الغيبيات وعالم السحر. كأنني مررت بشريط سينمائي طويل أرهق الذهن، وأوقد عاطفة الذاكرة، وحرك موج الحنين في أعماقي...

شرعت الحالة تستخلص الذكريات من بين الصور المهولة، المبعثرة في ساحة الفكر، وبالذات صور العائلة والأصدقاء

والمواقف الطريفة والسفرات الجماعية التي حفرت أثرًا في الذاكرة. توقفت للحظات أمام صور أبي وأمي وإخوتي، فلم يمر الحدق بهم إلا ومجسات الذهن تصبح شاردة، سارحة، في أجواء الألفة والعشرة والحنين...

دخلت أجواء الاشتياق وباحة الرجاء، مارًا بأرجاء المدينة من أقصاها إلى أقصاها، طفت بوجوه الأصدقاء والأحبة، وملتُ بعطفي نحو تلك التي تمنيتها كميلان زهرة عباد الشمس نحو قرص الشمس. رقدتُ على ضفاف عشقها، وهاجت النفس لأريج الحبيبة التي خزرت الفؤاد بعبقها الخزامي، تلك التي روّضتني كفراشة، فصرت أتبع شذرة الحسن المبتهجة ونفحة الطيب الشذية، حتى وهي بعيدة عني، تائهًا في قدري وتفكيري، أبحث عن فرصة أشد بها نجواي إلى نجواها إلى الأبد...

باتت عصا الحركة تؤجج جمر الماضي في كوة الذاكرة، اشتد عصب الشوق، وصار يشذّ في تخويره عن حدود الظن ونحن نسير بمحاذاة الجبهة قاصدين قاطع جلات. أضحيت كمن ينشر غسيل الأمس على حبل اليوم، حائرًا في وصف جور الزمن الذي تمادى في غيّه...

ترى، هل سأمر بتلك المحطات مرة أخرى؟ هل سأرنو لها وترنو إليّ؟

لم أنسَ أمي الحبيبة إطلاقًا وهي تعد الفطور كل صباح عبر سنوات العمر، جالسة أمام موقد النار تنتظرنا نصحو من

غشية الرقاد، لنفطر على يدها ما لذ وطاب. لا تكلّ من عملها اليومي، كأنها موعودة بهذا الشقاء الذي كلفها به الله، لتتقد شمعة أمومتها بين أعيننا، لا تغادر عذابات الموقد حتى تُرضينا جميعًا.

ولن أنسى طاسة الماء الفافون (الألمنيوم) التي كانت تقطع بها دابر العيون الحاسدة وزلل الشياطين، حين ترش الماء خلفي لحظة خروجي من البيت. عادة لا تكلّ منها، ترضيها نفسيًا، لتحفظني من كل من يترصد وجهي ويتبع سري من تلك العيون الزائغة. كانت ترش الماء خلفي بعد كل التحاق للجبهة، بمجرد أن تتجاوز قدمي عتبة الدار، تتبع أثري بعملها. إنها عادة متجذرة من زمن البابليين، حيث الاعتقاد بأن الماء مطهر النفوس من الشر والحسد.

كانت الأم تعزز موقفها بنظرات الفراق والدعاء، وهي تغسل رجس الشيطان عن ذاتي، وترافق فؤادها بطمأنينة ورجاء خالص لحفظ حياتي من كل مكروه. تلك عادة متجذرة في ذات وعقول الأمهات، عمق أصيل لدرء الشر والحسد عن أبنائهن، لما في الماء من خير، كما قال الله تعالى: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" صدق الله العظيم.

حين أذكر الماضي ليس لأنه جميل فحسب، أنما لأنه مليء بالقيم والحب والحنين، يجمل الأشياء التي افتقدناها في عصرنا، فتلتمع المحبة في حدقات العيون. لأنه زمن صعب أن يكرر نفسه.

ولـن أنسـى أبـي، ذلـك الرجـل الـذي بـذل كـل مـا فـي وسـعه ليُرضـينا، مسـتنزفًا طاقتـه وجهـده، محـاولًا أن يجلـب لنـا مـا اسـتطاعت يـداه أن تلتقطـه، ومـا جـادت بـه روحـه الطيبـة ونفسـه الزكيـة. كـان يعطـي بقـدر مـا يملـك، ويمنحنـا مـن مأكـل وملـبس مـا تفـيض بـه عينـاه الكريمتـان، رغـم فقـره وشـحّ جيبـه. لـم تعـرف الراحـة طريقًـا إلـى محجريـه، ولا إلـى وجنتيـه المشـرحتين بحـدة العناء، حتى يُلبّي رغباتنا قدر استطاعته.

ولـن أنسـى شـلتنا وصـحبتنا وشـقاوتنا، ونحـن نلعـب كـرة القـدم والطـائرة وسـط المحلـة: فـلاح، علـي، سـيروان، عـادل، فاضـل، صـلاح، وغيـرهم مـن فريقنـا الصـاخب. كانـت صـيحاتنا تـدوّي فتصـل إلـى كـل بيوتـات المحلـة، وكانـت علاقاتنـا حميميـة، خالصـة، لا تشـوبها شـائبة. كنـا نتجنـب اللعـب فـي الحـدائق العامـة، رغـم أن مدينـة جلـولاء كانـت تزهـو بسـعة حـدائقها ونظافتهـا، حيـث كانـت الدولـة تتكفـل بحمايتهـا ورعايتهـا، لتبقـى المدينـة متألقة برونقها ونضارتها.

مـرّ شـريط الـذكريات بتلـك الـرحلات المكوكيـة التـي كنـت أقـوم بهـا مـع صـديقي علـي لصـيد الحمـائم والعصـافير، متنـزهين تحـت ظـلال أشـجار التـوت والكـاليتوس والصـنوبر والصفصـاف، وبـين بسـاتين الحمضـيات والنخيـل التـي تشـتهر بهـا ديارنـا. كانـت حـدائق السـكك المسـيجة بالقصـب والبـردي وشـجيرات الدفلـة والآس تزخـر بجمالهـا. كنـت معجبًـا بمهـارة علـي فـي الصـيد، ربمـا لأنـه كـان أشـولًا، فمـا أن يرمـي الحجـر بصـيادته حتـى يسـقط الطيـر مغشـيًا بدمائـه. كنـا نسـتخدم "الصـيادة" المصـنوعة مـن

مطـاط معقـود بكـوز خشـبي علـى شـكل حـرف Y. وكثيـرًا مـا لاحقتنـا الشـرطة المحليـة تعكـر صـفونا، وتفسـد علينـا مرحنـا، وكـم من مرة المرحوم سعدالله كان يقوم بدور الشرطي في ملاحقتنا.

ولا أنسـى تلـك الـورود البهيجـة مـن شـابات البلـدة، اللـواتي تمنيـت صـحبتهنَّ حـين بـدأ شـعاع الشـباب يطفـح فينـا، واسـترخت أفكارنـا. مـا أن دخلنـا مواكـب الشـباب حتـى نهجنـا مـنهج الخجـل، وانزلقنـا فـي تيـه المحبـة والهيـام. أحببـت وفشـلت، وفلحـت مـرات ومـرات فـي جـذبهنَّ إلـى واحـة الشـوق. كانـت العقبـات كثيـرة: انشـغال، لا مبـالاة، فقـر حـال، ظـروف قاسـية، أو سـوء ظـن يشـتط بنـا. وهكـذا، كانـت الأيـام تـزق مـآربي وترثـدها فـي الـنفس كغايـات أهواء.

ولا أعـرف سـر جنـون إسـراء وتعلقهـا بـي. كانـت مـن أجملهـنَّ وجهًـا، وأرشـقهنَّ قَـدًّا، لكنهـا لـم تـدم فـي أزر فـؤادي بشـذى سـحرها. مـا أن تعلقـتُ بهـا، وصـافحت عينـاي رغبتهـا، حتـى هـوت فـي وهـدة المـوت. اختفـت خلـف ظلـم أبيهـا، حـين أقبلـت علـى الانتحـار قبـل أن أتمكـن مـن خطفهـا مـن كماشـة عجرفتـه. كانـت قـد هربـت مـن قسـوة لـم تحتملهـا، مـن أبٍ خمـارٍ كـان يجلـدها كـل ليلـة لتقصـيرها فـي إعـداد المـزة وتحضـير الخمـرة لـه. ربمـا الفقـر دعـس عليهـا، ودفـع بهـا إلـى وهـدة المـوت... والله أعلـم بتضارب الروايات.

فـي ليلـة مغبـرة سـكبت علـى جلـدها النـدي قمـع مـن الـنفط الأبـيض الكيروسـين ومـن ثـم كـورت جسـدها بعـود ثقـاب فـي

وسط الحوش، جنت على شبابها في ليلة شتوية باردة أحرقت بها قلبي وقلب محبيها وصديقاتها، فاضت روحها وارتقت سماء الذاكرة لتبقى نجمة مضيئة تذكرني بها.. غارت في ديجور الظلمة إلى الأبد كومضة مراءة في الذاكرة. لم يصدق والدها ما حدث لها، ولم يصحى على ذنبه وغيه إلا بعد أن لفظت أنفاسها وركنت نفسها أمامه كقطعة متفحمة وهيَّ في غرة شبابها أبنة السادسة عشرة سنة.

لا ألوم أحدًا على الجُرم، فحين تغيب الإنسانية عن الدولة، يصبح الفقر والجور والجوع دوافع لا تُقاوَم. هذه العناصر تنهش كيان الإنسان، تفتك بذهنه وجسده، وتدفعه نحو غايات لم يكن ليبلغها إلا بانكسار. هشاشة حالته أمام جبال أمنياته جعلته عاجزًا عن مواجهة قدره، فاستسلم لعذاباته، وانتهى به الأمر إلى إغلاق منافذ الحياة. جنح للخمر، لا رغبةً، بل هروبًا. وأجبر ابنته على الانتحار، بعد أن فقدت ثقتها به، ولم تستطع احتمال زراية جائحته المشينة.

لقد صار الفقر حالة روتينية في البلد، يطفح أثره في الوجود كما تطفح المجاري في الحارات والشوارع. تمادى الطغيان من جهة، واستمرت حالة التعسف من جهة أخرى. شحّ المواد، ضعف العملة، وانعدام فرص العمل، خاصة لكبار السن، رغم أن البلد يطفو على كنوز من الخيرات.

لكن...

الحكومات المتعاقبة لم تسعَ إلا خلف الكرسي، دون أن تفكر بمصير شعبها. بذخت على الحرب قبل أن تبدأ، وكأنها خططت لها أو شعرت بها، فتهيأت لها بقوة، دون أن تنظر لحال الشعب المعدوم. أهدرت خيرات البلد على آلة عسكرية، جلبت البؤس والفقر والويلات.

كانت حكومات فخفخة، تتفاخر بالإعلام، وتُجمّل ذاتها، لكنها لم تحتضن في رصيدها الإنساني سوى قائمة طويلة من التمني والعجرفة والأخطاء. جلبت الويلات، وأحاقت البؤس كأغلال في أعناق الناس.

وذلك الخمّار، لم يكن سوى ضحية. جمع قواريره من تعسف الفقر والجور، من عجزه الجسدي والفكري، ومن قلة الفرص. لم يصل إلى الإدمان إلا بعد أن تشققت قدماه، ولم يعد يجد ما يرتديه، وقرقرت مصارينه التي ما عاد يجد ما يسدها. تمسك بالخمرة كما يتمسك الراهب بصومعته، لا حبًا بها، بل هروبًا من واقع أثقل كاهله، واستنزف عمره دون أن يمسك بخيط يوصله إلى بر الأمان.... كان عاملًا بسيطًا، تقاعده لا يسد رمقه.

ثم تمادى بي الحنين إلى ضفة الدراسة، إلى الفاتنة "رجاء" ذات الشعر الأسود المتفحم، التي كانت تصوغ منه ضفيرة، ترتديها كعقال من البهجة والشموخ، تعقدها بوردة وردية تضفي عليها أنوثة ساحرة. كنت أشعر بودٍ جامح تجاهها، وكانت تبادلني ذات الود. كانت تقول لي:...

- لا تفكر بشيء قبل أن تنهي خدمتك العسكرية...

كانت تشعر بالقلق من مواكب الجثث التي تُزف بالعلم الوطني بعد كل معركة.... بقيت تعيش على أمل الرجاء الذي لم يولد، بقيت تنتظر دون أن ترمي شباكها خارج حدود ظلي، يكفي أنها أودعتني صورتها وهي تتأملني بكل شوق...

لكن لسطوة الخوف ومغالاة الحرب التي اجتاحت أحلامنا، قُتل الحلم في مهده. لم تصل الحرب إلى محطتها الأخيرة إلا بعد أن استهلكت أمانينا تحت عجلاتها، فما عادت تدور بفلك النفوس بذات الدافعية، حتى توقفت متهتكة بعد ثماني سنوات عجاف، كانت كفيلة بأن تشطّ بالأنفس عن باحة التمني.

تلك السنوات الطويلة من القهر والجور اقتطعت أجمل أيام العمر والشباب، وتحولت إلى مجرشة تطحن الأحلام والتأمل، بأتراس حالة اقتصادية مترديه انعكست بجورها على الشعب، لا سيما الطبقات الكادحة، وخصوصًا مراتب الجيش المساقين قسرًا إلى الخدمة الإلزامية.

كان الناس مرعوبين على فلذات أكبادهم، شبابًا وشابات، والخوف قد حزّ القلوب من شبح الموت على السواتر، أو من قيود الأسر والعوق الذي يلاحقهم كظل أبدي من العجز. غدت النفوس تمتطي مواكب القدر مضطرة، مضطربة، كأنها هواجس لا تستريح على جرف فرح.

لكن لسطوة الخوف ومغالاة الحرب التي جرت على أحلامنا قتلت الحلم في مهده، لم تصل الحرب لمحطتها الأخيرة إلا بعد أن استهلكت أحلامنا وأمانينا عجلاتها.. فما عادت تدور بفلك النفوس بذات الدافعية، حتى توقفت متهتكة بعد ثمان سنوات عجاف بالتمام والكمال، حينا كانت قد شطت الأنفس عن باحة التمني.. تلك المدة الطويلة من القهر والجور كانت كافية لتقتص منا أجمل أيام العمر والشباب، لتتحول أيامها التالية لمجرشة تجرش الأحلام والتأمل بأتراس الحالة الاقتصادية التي تردت، والتي انعكست بجورها على ظرف الشعب وخاصة الكادحة منهم، وبالذات مراتب الجيش المساقة للخدمة الالزامية.

غدت النفوس تمتطي مواكب القدر مضطرة، مضطربة، كهواجسهم التي ما عادت تستريح على جرف فرح.. الخوف وطأ الشوارع والبيوتات ليقبض على هواجس الشبان والفتيات، لج في نفوسهنَّ كشوكة الرعب من شبح الترمل والعنوسة، تعلق بالمصير المجهول كنتيجة لمغالاة الظرف في تردي الاوضاع. لقد صبنَّ بالهوان لطول تربصهن أمام الأمر الطارئ المجهول، معظم البنات تجنبنَّ اجتياح حاجز المغامرة والزواج رغم شروع أعمارهن وتجاوزهن خط العزوبية، لكثرة ما شاهدنَّ من مآسي حصلت أمام أعينهن. غدت تجارب الآخرين سيناريوهات مكررة ومشاهد حية من مسلسل الحرب الذي لا تنتهي حلقاته، غدت أفلام رعب الخيالية حقيقية واقعة تلقفتها الألسن قبل الاعين، حالة لا تحتمل عصفتها.

لـن أنسـى فاجعـة جارنـا خالـد، وجارنـا وحيـد، والكثيـر مـن أمثـالهم، حـين ثلمـت الفاجعـة أحلامهـم البسـيطة، وثبّـرت فـرحتهم فـي أول شـروعها. مـا إن أتمـوا زفـافهم، حتـى التحقـوا بجبهـات القتـال بعـد ليلـة أو اثنتـين. ولـم يعـودوا إلا بصـمتٍ ثقيـل وبخبـرٍ مشـؤوم. عـاد خالـد بصـندوق خشـبي ملفـوف بعلـم العـراق، فيمـا عـاد وحيـد كخبـرٍ دون جثـة، مفقـودًا، تاركًـا الحسـرة تتقـد فـي قلـب أمـه وزوجتـه. ظـلّ أهلـه يمنّـون الـنفس بانتهـاء الحـرب، بخبـر يـثلج صـدورهم، ولكـن دون بـادرة أمـل تغسـل وجـوههم الموشـحة بالسواد.

المآسي تنوعت، والمصير واحد:

من مات وفقد حياته.

من أُسر وفقد بهجته.

من ضاع اسمه وحقه.

من تعوّق ليحمل هم الحرب بقية عمره.

ومـن مـات فـي بيتـه وهـو علـى قيـد الحيـاة، لـم يجْـنِ مـن الـزمن سوى ذكرى أحبته الراحلين، تنغز فؤاده بسمّ ذكراهم.

الكل فقد البهجـة والاسـتكانة، سـواء مـن شـارك فـي الحـرب أو مـن لـم يشـارك. الكـل اسـتكان فـي قـاع الصـمت، ينـدب حظـه فـي معمعة لا يعرف لها حل ولا سكينة.

ورغم أن الدفاع عن الوطن حق وواجب، فإن الابتلاء لم يكن بسبب الوطن، بل بسبب عنجهية قادة البلدين. أموال الدنيا لن تعوّض ظفرً شاب راح ضحية تلك العجرفة. لذا، عزف الشباب عن خوض مغامرة الزواج، وقابلهم عزوف الشابات، في مشهدٍ من الحزن الجماعي، لا يُنسى.

الفصل الرابع

1- قاطع جلات

المحور الثاني من المعركة: جبهة جلات

شهدت منطقة جلات المحور الثاني من المعركة، حيث حاول العدو فك الطوق عن قواته المحاصرة شرق دجلة. تقع جلات مقابل مدينة علي الغربي، شمال الطيب بـ120 كم، وقد فتح العدو هذه الجبهة أملاً في سحب جزء من القوات العراقية التي كانت تطارد فلول قواته المنهزمة، في محاولة يائسة لإنقاذ ما تبقى منها من موت محقق.

ربما راهن العدو على توسيع محاور الهجوم للسيطرة على شارع بغداد القريب من الحدود، بهدف قطع إمدادات الجيش العراقي والضغط على القوات المهاجمة في الجنوب، لفتح مسالك انسحاب تحفظ ماء وجهه أمام شعبه، بعد أن تورط في مستنقع المعركة.

سواء كانت نواياه توسيع الهجوم أو فك الحصار، فقد رسم خطته الأولية لشن هجوم في هذا القاطع لفتح ثغرة في الجبهة، يعززها لاحقًا بهجوم أوسع يفرض من خلاله طوق كماشة على قواتنا في شرق دجلة. علمًا أن المسافة بين الجبهة والشارع العام الرابط بين بغداد والبصرة لا تتجاوز عشرة كيلومترات، ما يؤكد أن الهدف كان الوصول إلى هذا الشريان الحيوي لقطع الإمدادات القادمة من الوسط إلى الجنوب.

جاء هذا التحرك بعد أن تأكدت القيادة من انهيار العدو في موقعة البيضة والسودة، حيث انسحبت قواته بشكل عشوائي ومهزوم، تاركة خلفها قتلاها وجرحاها ومعداتها تحترق في أرض المعركة.

عندها صدرت الأوامر لوحدتنا بالتحرك نحو قاطع جلات لمعالجة الخروقات التي أحدثها العدو، بعد مباغتته لقطعاتنا في تلك الجبهة الوعرة، الممتدة من الطيب حتى سلسلة جبال حمرين، ومنها إلى وسط وشمال العراق عبر ديالى وصلاح الدين والموصل. كلما اتجهنا شرقًا نحو الحدود الإيرانية، ازدادت الأرض وعورة وتعقيدًا.

جبهة جلات أرض مشلولة، لا تصلح إلا لحركة المشاة، فيما الجانب العراقي أكثر سلاسة، إذ تنبسط الأرض بعد كيلومتر واحد فقط حتى تصل إلى شارع بغداد المحاذي لنهر دجلة.

بعد مسير نهار كامل على الطريق العسكري المحاذي للجبهة، وصلنا بحدود الخامسة عصرًا في اليوم الرابع للمعركة. دخلنا الجبهة من الجنوب، متسترين بالتلال، مما أربك القوات الإيرانية التي فوجئت بطول رتلنا، وأجبرناها على الانسحاب من الوادي نحو الروابي التي كانت قد سيطرت عليها صباحًا، بعد دحرها لقوات الجيش الشعبي السوداني.

خلال تقدمنا شاهدنا عن بعد جنود تتسلق الروابي، فلم نخبر عن طبيعة الوضع السائد فيها. كانت تحاذينا يسارا تلول أقل ضراوة وارتفاعا من تلك التي تقع على يميننا، كنا نسير في

تلك الوهدة من الأرض وأعيننا شاردة على الطريق وعلى عمق الوادي الذي يجاري الطريق من جهة اليمين، والذي عبر بمنظره عن ما لحق بقوات الجيش الشعبي السوداني من مأساة واضحة، من خلال جثث قتلاه المتفحمة وعجلاته المحروقة والتي بعض منها لازالت تشتعل النار فيها، لازال الدخان يتصاعد من ثنايا الجثث والعجلات المعطوبة. لقد أرهقتنا المناظر البشعة التي واجهتنا في حوض الوادي مع بداية دخولنا ساحة الوغى، ماضين باتجاه الموقع المحدد لنا، والذي يبتعد عنا بمسافة كيلومتر واحد.

مع دخولنا المنعطف؛ تراءت لنا تلك المناظر البشعة وأخرى لازالت تتقد، يعط منها رائحة الدخان وشواء الجثث، دلالة على أن معركة شرسة كانت قد حصلت قبل ساعة أو ساعتين من لحظة وصولنا. تلك الآليات والجثث تابعة لفصائل الجيش الشعبي(الجيش المدني)، متناثرة مع المسار الذي كنا نسلكه، في تلك الوهدة والأخاديد من يمين الوادي....

لم نتفهم حقيقة الوضع ونحن نسير على بركة الله دون مرشد أو دليل، متجهين إلى الموقع المحدد لنا حسب الخارطة العسكرية التي بمعيتنا. والحقيقة نحن دخلنا في نفق مظلم، لم نفهم طبيعة ما كان قد جرى، لم نفهم ما يحيط بنا من شرر. لولا رحمة الله لكنا قد وقعنا في فخ تلك القوات التي ما أن شاهدة طول رتلنا؛ حتى جزعت وباتت تهرب متسلقة المرتفعات. دخولنا المفاجئ اربك القوات الإيرانية، جعلها تتخبط في سلوكها وانسحابها نحو قمم التلول التي سيطرت

عليهـا... لـم تخطـط جـديا لهـدفها، تواجـدها فـي تلـك البقعـة كـان تواجدا عشوائيا غير منظم..

مـا أن شـاهدوا رتلنـا يتقـدم باتجـاههم، ولّـوا هـاربين يتسـلقون الهضـاب، شـعروا بـالخطر قـادم، ربمـا خيلـت لهـم بـان قـوة أخـرى سـتفاجئه مـن الجهـة الأماميـة والغربيـة، ذلـك مـا زرع فـي نفسـيتهم خيفة وارتباكا....

فـي الواقـع تلـك المنـاظر مـن الآليـات والجثـث المحروقـة أوضـحت لنـا ضـعف قـوات الجـيش الشـعبي السـوداني الرابضـة فـي هـذا القـاطع.. وقـد اسـتغل العـدو ضـعف تلـك القـوات لينـتقم منهـا. (وهـم عناصـر مـن حـزب البعـث العربـي الاشـتراكي فـرع السـودان الذين تطوعوا باسم الحزب بشكل غير رسمي).

لوعـورة القـاطع، أو بمعنـى آخـر لكونهـا جبهـة ميتـة، آلـت القيـادة العراقيـة إلـى إناطـة مهمـة الـدفاع عـن هـذه القواطـع الرخـوة لقـوات الجـيش الشـعبي، وذلـك لطـول جبهـة القتـال مثلمـا أسـلفنا، والتـي تزيـد عـن 700 كيلـومتر، ولاسـتحالة تفكيـر العـدو بشـن هجـوم عليهـا، لصـعوبة تحـرك الياتـه الثقيلـة بهـا، لطبوغرافيـة الأرض المعقدة....

تلـك المنـاظر التـي ارتسـمت أمامنـا أيقظـت فينـا مشـاعر الحـذر، ودفعتنـا إلـى رفـع درجـة التأهـب إلـى أقصـاها. سـكنت القلـوب رهبـة طبيعيـة، واصـطبغت الوجـوه بصـفرة الخشـوع، كأنهـا أفزعـت أوصـالنا. صـارت العيـون تبحلـق فـي الأرض والسـماء،

تتجنب أي طارئ مفاجئ. فالخوف مباح لمن يرى تلك المشاهد البشعة التي زعزعت ثقتنا وتلاعبت بتراكيب الفكر.

راودتنا غبرة سوداء من دناءة المناظر التي لا تبعد عن الشارع سوى خمسين متـرًا، تزامنًا مع حنين مفاجئ للأهل والأحبة، إذ بدا أن احتمال أن نلاقي ذات المصير أمر وارد. أدركنا حينها أننا دخلنا في صلب المحك، لا مفر من مواجهة الواقع المفروض علينا. تلك الصور دفعتنا إلى تجهيز أسلحتنا، ولملمة أفكارنا، والترقب الحذر لما يحيط بنا، بخطى بطيئة، كأننا ندخل عنق الزجاجة.

كنا نسير في رقعة تفوح منها رائحة الموت، دون دليل، في طريق مجهول، لم نُخبر بحقيقة الموقف في جبهة القاطع. كانت تلك الصور بمثابة إعلان أننا دخلنا أرض الحرام، منطقة الخطر الأكيد، في تماس مباشر مع العدو. تجاوزنا خط التأني إلى خط الالتحام، تخلينا عن المدفعية واصبحنا رجال مشاة، بصراحة كنا أشبه بخرفان الأضحية لولا مفاجئتنا العدو بدخولنا من الجهة الجنوبية، منصاعون للأوامر. أصبحنا في الواجهة دون أن ندرك ذلك.... الخوف نابع من أننا قوة مدفعية، أي أنَّ صميم عملنا هو إسناد القوات المهاجمة، أي علينا أن نتجحفل خلف قوة مشاة لتسندنا ونسندها، حسب السياق العسكري المعمول به، فلسنا قوة التحام مباشرة.

ما زاد الطين بلة هو ما أغشانا وأوهمنا وأراد الإيقاع بنا في فخ العدو ذلك الضابط الموارب برتبة (رائد مشاة) الذي جاء

بعجلة الواز القيادة من جهة العدو مستقبلا لنا في منتصف الطريق ليطمئننا، والحقيقة جاء يتعرف على صنف قواتنا وقدراتنا القتالية ليخبر جنود العدو.. عرف ذاته بأنه تابع لقوات مغاوير الفيلق الرابع، تمثل لنا على أنه جاء يستطلع الجبهة في عجلة الجيب، حيث وصف لنا الموقف بالمسيطر عليه تماما.

وحين شاهدنا مجموعة من الجنود بحدود خمسين جنديا يتسلقون الرابية راجلين أمام أعيننا، يبعدون عنا بين 400 م – 500 م، حينها سأله آمر الرعيل الملازم عدنان عن طبيعة هؤلاء الجنود؟ وكنت على مقربة منه أسمع الحديث، قال لنا:..

- أنهم جنودنا، هؤلاء مشاة عراقيون، وأشاره إلى الرابية كما ترى أنها تحت سيطرتنا.

ذلك ما أوقع السكينة في نفوسنا، ولكننا بقينا على ما نحن عليه من تأهب لمواجهة أي طارئ.

حيث المشاهد تدل على أننا دخلنا في صلب المحك ولا مجال من التهاون، لذا أوعز الآمر إلى الجنود بتهيئة بنادقهم الخفيفة، وهي كلاشنكوف الروسي وقاذفات الآر بي جي 7. تحسبا لأي طارئ.

مضينا في سيرنا بمحاذات الوادي، لنركن في موقعنا الجديد بعد أن تجاوزنا قنطرة الوادي، في أرض مفتوحة يسار مجرى الوادي الذي ينحدر باتجاه نهر دجلة بمسافة 200 م، والذي

ممكن تحديد اتجاه الرابية التي تسلقها الجنود من موقعنا بزاوية نظر بـ 30 درجة مئوية شرقا ومسافة كيلومتر ونصف تقريبا، ركنا خلف ساتر ترابي بارتفاع متر ونصف تقريبا بمحاذات الشارع الذي كان معد مسبقا..

لو أن أولئك الجنود بقوا متخفين في منحنيات الوادي، لارتكبوا مجزرة بحقنا، لكنهم جبنوا حين رأوا طول رتلنا، فأربكهم المشهد وفرّوا إلى قمة الهضبة. كانت تلك من رحمات الله علينا.

أصبح مجرى الوادي الرئيسي يقع إلى يمين موقعنا، يتجمع من تشعبات أخاديد غائرة في خاصرة الروابي الشرقية والجنوبية، متداخلة في وهدة منخفضة بمحاذاة طريق الجبهة. تتحد تلك الأخاديد في وادٍ عريض بعرض 30 إلى 50 مترًا، قبل موضع القنطرة بأمتار معدودة، ثم ينحدر إلى مجرى واحد بعمق يتراوح بين مترين إلى ثلاثة، متجهًا نحو نهر دجلة بخط شبه مستقيم. يحاذي الوادي من جهة اليمين شارع يرتبط جنوبًا بشارع بغداد–البصرة، والشارع الحدودي الذي اتخذناه مسارًا لنا.

كان هذا القاطع قبل المعركة خاملاً، بعيدًا عن توقعات الحرب في ذهن القادة العسكريين، بسبب تعقيدات طبوغرافية الأرض، خصوصًا من الجهة الإيرانية، حيث يصعب تحريك الآليات الثقيلة فيه، فلا تصلح إلا للمشاة والطائرات والنقل فوق البغال والحمير. وبما أن سلاح الجو الإيراني خرج من الخدمة

منذ عام 1982 بعد أن قضت عليه قواتنا الجوية، بات من المستحيل على العدو إدارة المعارك في هذا القاطع، إذ لا يملك سوى بعض الطوافات غير القادرة على المطاولة. لذا سلّمت الدولة هذا القاطع إلى قوات الجيش الشعبي، لضعف فعاليته، وهذه القوات لا تملك سوى البنادق الخفيفة والهواوين المحمولة من عيار 60 ملم.

خلال الحرب، أُدرج لواء يمني أرسله الرئيس علي عبدالله صالح، وفوج من الجيش الشعبي السوداني، وآخر من المصريين. وضعوا هؤلاء ضمن قواطع الجبهات الخاملة في قسم الإسناد. جميعهم من أعضاء حزب البعث العراقي، عدا اللواء اليمني الذي قال عنه الرئيس اليمني: "جاءت مشاركتنا لأننا لا نملك مالًا أو سلاحًا ندعم به العراق."

لكن يبدو أن هناك من وشى للعدو عن ضعف القوات في هذا القاطع وفي قاطع شرق دجلة، فاستغل العدو هذا الضعف وشن هجماته بزخم يفوق قدرة تلك القوات، مثل ذلك الضابط الموارب الذي أوهمنا بأن القوات التي تسلقت الرابية هي قوات عراقية.

الخيانة موجودة في كل عصر وزمان. هناك من يفضل الطائفية، وآخر يتبع القومية، وغيرهم يتبع الحزبية، في كراهية الدولة. كالحزب الشيوعي وحزب الدعوة الذين يفضلون المبدأ على الوطن فعملوا كطابور خامس. كل هؤلاء تواطؤوا مع العدو، بقصد أو دون قصد. لأن الوطن أسمى من

كل المسميات، وفوق جميع الخلافات مهما عظمت. من العيب على من يسمي نفسه مناضلًا أن يتفق مع الأجنبي ضد وطنه. والتاريخ يذكرنا بالخائن أبو رغال وحسني البقرة. العاقل لا يستبدل الحالة الثابتة بالحالات المتقلبة. يجب أن يكون حب الوطن هو الثابت، فوق حب الذات والمصلحة، مغروسًا في القلب، جارياً في العروق مع الدم. الوطن هو الغطاء الذي يستر كل شائبة، هو البيت الذي يأوينا ويحفظ قيمنا. حين تكون خارجه، تشعر بقيمته وقدره.

قال ابن الرومي:

ولي وطنٌ آليتُ ألا أبيعَهُ

وألا أرى غيري له الدهرَ مالكًا

وربما يُعذر بعض الخونة لتقصيرٍ في فهمهم، أو لتقصير الدولة في رعايتهم وتعليمهم. فبعض القرى في الأهوار تعيش تحت خط الفقر والتخلف، تنهكهم الأمية كالطاعون، وتبتلع أحلامهم. يعيشون في صراريف من القصب والبردي وصفائح الألمنيوم، في دولة تسعى للارتقاء بين الأمم. أناس يتمنون شربة ماء نقية، وسقفًا يحميهم من زمهرير الشتاء ولهيب الصيف، وكهرباء تنير لياليهم، ليشعروا بانتمائهم للوطن.

ليس من المنطق أن تطلب من جائع أو عارٍ أن يدافع عن وطن لم يحسن إليه، ولم يراعِه لعقود. ذلك قمة الإسفاف والتعسف بحقهم، في ظل واقع مظلم لم يُفسر لهم معنى الحياة.

2- تسلل الايرانيين في الوادي

ذلك الضابط الموارب كان قد أشار إلينا باستتباب الأمن وسيطرة قواتنا الكاملة على الوضع، مما بث في نفوسنا الطمأنينة بعد ما رأته أعيننا من مشاهد مؤلمة على امتداد الطريق.

بعد تجاوزنا للموقف، وصلنا إلى موقعنا خلف الساتر الترابي المحاذي للشارع الحدودي المعبد، الذي يربط قواطع الجبهات ببعضها. خلفنا امتدت مجموعة من السواتر المتقطعة للدفاع والتمويه، حيث انفتحت بطاريتنا المكونة من 12 مدفعاً خلف الساتر الأول في خط مستقيم، مع ترك مسافة تقارب 20 متراً بين كل مدفع وآخر. كان الوادي يقع إلى يميننا على بعد 200 متر، بعمق يتراوح بين مترين وثلاثة أمتار. أما أمامنا، فكانت ثلاث هضاب شاهقة، ارتقاها عدد من الجنود أمام أنظارنا.

ما إن أنهينا توزيع المدافع، حتى بدأت هواوين العدو الخفيفة من عيار 60 ملم، إلى جانب رشاشات البي كي سي، ترشقنا من قبل الجنود الذين ارتقوا تلك الروابي. استمر القصف والمناورة نحو نصف ساعة، تمكن خلالها العدو من تعطيل أحد مدافعنا دون أن تُسجل خسائر في الأرواح.

لم نكن قد جهزنا المدافع على أهدافها بعد، إذ كانت الصورة غير واضحة، خاصة بعد أن أوهمنا ذلك الضابط الموارب بأن الجنود المتسلقين هم من قواتنا العراقية. أمرنا القائد بالانتشار على السواتر الأخرى تفادياً للتجمع في نقطة واحدة، حاملين

أسلحتنا الخفيفة من بنادق الكلاشنكوف، تحسباً لهجوم مباغت من الأمام أو من جهة الوادي.

في تلك اللحظات، اتصل آمر البطارية بمركز القيادة، وأبلغهم بتفاصيل الهجوم وموقعنا الذي أصبح في تماس مباشر مع العدو، كما كشف لهم حقيقة الضابط المزيف الذي ادعى انتماءه لمغاوير الفيلق الرابع. كان ذلك الرائد قد اختفى تماماً بعد أن كشف زيفه، إذ لم يكن يرتدي زي المغاوير المرقّط، بل بدلة مشاة الصحراوية بلون كثبان الرمل. لا نعلم كيف لم ننتبه إليه، ربما بسبب تأزم الظرف، أو لطلاقة لسانه ولهجته العراقية المتقنة، أو لأنه جاءنا بعجلة واز صغيرة تابعة لصنف الضباط في الجيش العراقي. صدقناه لأنه تحدث بلهجتنا، ولم يكن لدينا خيار آخر، وربما كان من عرب عربستان. بعد أن أخبرنا، اتجه مسرعاً نحو الجنود ليحذرهم، ثم انحرف يساراً باتجاه أراضينا.

انتشر جنود البطارية على السواتر شبه المدرّجة، مجهزين بأسلحتهم الخفيفة وقنابل الرمان، مستعدين لأي طارئ. كنا نخشى هجوماً مباغتاً من الوادي المفتوح أمام العدو، ويمكنهم التسلل عبر أخاديده مستغلين عتمة الليل.

في تلك المناورة، أراد العدو أن يثبت لنا أنه لا يهاب وجودنا، ولا يستسلم لنياتنا، بل يفرض حضوره بقوة في ساحة الميدان، متمركزًا فوق الروابي الثلاث، مسيطرًا على أرجاء القتال. شعرنا حينها وكأننا في الموضع الخطأ، فاستنفرنا حذرنا،

ولملمنا شتاتنا لمواجهة ضعفنا أمام جنون العدو، منتظرين المداد من الفيلق الرابع. أصبحنا تحت رحمة رشاشاته وهواناته، وهو يعتلي القمم كالعقاب، ونحن نتخندق في الوادي كالأرانب والجرذان، عرضة لقناصيه كما تُلتقط الفرائس من قبل الجوارح.

عند دخولنا الجبهة برتل طويل، أوهمنا العدو بحجم قوتنا ونوعيتها. كان لطول الرتل أثر بالغ في نفوسهم، إذ أوقع فيهم رهبة من تواجدنا، بينما حجب عنهم رؤية المدافع الملثمة خلف ساحباتها. ذلك ما أعشى أبصار الجنود المنتشرين في الوديان خلف فلول الجيش الشعبي السوداني المنكسر.

صعوبة التكهن بنوعية قوتنا بسبب خط النظر المستقيم جعلهم يظنون بنا أكثر مما نحن عليه. لقد سقطوا في فخ الظن، فهربوا قبل أن يصلهم الضابط الموارب الذي عرف قدرتنا وصنفنا.

كان ذلك من حسن حظنا، فلو شنوا علينا هجومًا مباغتًا في تلك اللحظة، لتمكنوا من قتلنا وحرق عجلاتنا والسيطرة على مدافعنا، إذ لم يتجاوز عددنا مائتي مقاتل من الدرجة الثانية، غير مدربين على قتال المشاة، ومدافعنا مقيدة بعجلاتها لا تصلح للمواجهة المباشرة. لقد خانهم تفسيرهم لحالتنا، فبمجرد أن شعروا بتقدمنا نحو أوكارهم، هربوا إلى القمم مهرولين، متسلقين الروابي قبل أن نلتحم بهم... في حالة الالتحام، تفقد المدافع جدواها، ولا تستطيع ردع العدو. لكنهم ارتكبوا خطأ

التقدير، ففروا أمام أعيننا، بينما أوهمنا الضابط الموارب بأنهم جنود مشاة عراقيون.

وأظن لو عرفوا حقيقتنا كبطارية مدافع ثقيلة عيار 120 ملم، لاستقبلونا برشاشاتهم من كل جهة، ولأبادونا خلال دقائق، لأنهم كانوا محصنين في الوديان، ونحن نسير في طريق لا تسع إلا لعجلة واحدة، فإذا تعطلت الأولى يتوقف الرتل، ولأمتد الحريق ليأتي على بقية العجلات.

كنا جاهزين للعلس والتفحم، مثل تلك الجثث المتفحمة والعجلات المدخنة التي رأيناها. أراد الرائد الموارب أن يجعلنا لقمة سائغة في فمهم، لكنهم هربوا قبل أن يكشف لهم صنفنا.

كانت الجثث المتفحمة منتشرة بمحاذاة سيرنا، تزيد عن عشرين جثة، وحوالي سبع عجلات تلتهمها النار. وعندما عاد الضابط باتجاههم، لم يجدهم، فقد انسحبوا نحو التلول قبل أن يصل إليهم، بينما كنا نتبعه في سيره الذي اسرع نحو شارع بغداد.

لم تمضِ ساعة على وصولنا حتى وصلنا المدد، مدعومين بفوج من لواء المغاوير التابع للفيلق الرابع، لينتشر على ضفتي الوادي مع دخول الغسق، وفوج من لواء مشاة وصل متأخرا، ليكونا سندًا لنا في المواجهة التالية.... دخلنا الجبهة وفق الأوامر، قبل وصول قوة المشاة، ما جعلنا ندخل دون مرشد، وكان ذلك خطأً أنقذنا من شر العدو في الوقت ذاته.

بعد الحادثة، بحثنا عن الرائد الموارب، فلم نجد له أثرًا في مغاوير الفيلق الرابع. علمنا حينها أنه كان مدسوسًا أو خائنًا، وربما أحد عناصر الجيش الإيراني أو من خونة عربستان، متنكرًا بالزي العراقي، إذ يتكلمون لهجتنا تمامًا.

أقول خائنًا لأنه جاءنا من جهتهم، وعاد إليهم مسرعًا بعد أن عرف صنفنا، ولم تكن هناك قوات غيرنا في تلك البقعة. ربما كان من الطابور الخامس الذي هيأته إيران لضرب العراق من الداخل. أراد أن يوقع بنا شرًا، لكن خاب كيده، فشاء الله ما قدر وفعل، ونجونا من كمينه بقدرة قادر.

بعد أن أنقطع الرشق لملمنا صفوفنا، وهيأنا مدافعنا الإحدى عشرة ووجهناها نحو الرابية الأولى والثانية، كان علينا أن ننتظر ليوم آخر حتى يصل فوج مشاة لأحد الألوية ليشترك مع مغاوير الفيلق الرابع بشن الهجوم المقابل، لنتمكن من اسنادهم خلال تقدمهم.

في جنح الليل، انصبت الهواجس نحو الوادي الذي اشتعل كبركان، حيث لم يهدأ صليل الرصاص ولا دوي قنابل الرمان لساعات بعد منتصف الليل. فقد دارت فيه معارك ضارية، إثر تسلل قوة من العدو تُقدّر بمئة جندي إيراني أو يزيدون، حاولوا الالتفاف حول قطعاتنا ومباغتتنا من الخلف، بعد أن استقر رعيلنا في نقطة مكشوفة بالنسبة لهم، إثر تأكدهم من صنف وحدتنا.

لكنهم لم يدركوا تغلغل قوات المغاوير التي دخلت القاطع متسترة بعباءة الغسق، وانتشرت بهدوء على جانبي الوادي دون ضجيج، بطول 200 متر حتى حدود القنطرة. حتى نحن لم نعلم بوقت دخولهم، لولا وصول خبر يطمئننا بتواجدهم.

كانت عيون فوج المغاوير ساهرة، ترصد تحركات العدو، فسمحوا لجزء منهم بالعبور، ثم انقضوا عليهم كما ينقض الليث على فريسته، فأبادوا ثلثهم، وأسروا الثلث الآخر بين جريح وسليم، فيما أجبر البقية على التقهقر والهرب عبر أخاديد الوادي في انسحاب غير متزن نحو الروابي.

كنا نرى الإطلاقات تتطاير في سدم الظلمة كألعاب رأس السنة، تنبلج في السماء كنجوم وضاءة ثم تنطفئ، خاصة قذائف الـ RPG-7 التي تنتحر على بعد 500 متر إذا لم تصادف هدفًا، وكذلك إطلاقات المذنب التي تُستخدم للدلالة والإشارة.

كنا نطمئن على الوضع من خلال اتصال الآمر بمقر الفيلق، ليبلغنا بحقيقة الموقف الدائر في الوادي، قبل أن يسرقنا النوم نتيجة الجهد المبذول خلال نهار ذلك اليوم. فقد انصب هاجسنا على تجاوز محنة الليلة، لأننا أصبحنا في مواجهة مباشرة، مهيئين أسلحتنا الخفيفة بأحضاننا، نائمين على الساتر دون ملاجئ تحمينا.

المساحة أمامنا مفتوحة، تمتد نحو قمة الرابية بارتفاع سلس لمسافة 500 متر، ثم تبدأ درجات الارتفاع بالازدياد حتى

تصل إلى القمة على بعد كيلومتر ونصف. الأرض شبه منبسطة، لا تتخللها شقوق أو أخاديد، ولا تسمح باستخدام التمويه أو الاختفاء، لذا ارتأى العدو في غارته المزمعة أن يستخدم أخاديد الوادي من الأمام واليمين، متسترًا بعباءة الليل، متخذًا من منعطفات الوادي ساترًا طبيعيًا.

يقينًا، لم يكن العدو على علم بانتشار قوات المغاوير على ضفتي الوادي، فخاب ظنه مرة أخرى حين اعتقد أن الوادي سيسترهم في طياته، ويتمكنوا من الالتفاف حولنا ومباغتة وحدتنا من الخلف. تبددت أوهامهم بسرعة، وتم القضاء عليهم وإبادتهم بالشكل المطلوب، إذ كانت خطتهم الواهية مكشوفة لقوة المشاة المنتشرة حول حافتي الوادي.

أدركنا حقيقة الموقف مع بزوغ خيط الفجر، بعد أن غطسنا في مستنقع الكرى العميق، جراء الجهد المبذول نهارًا والإرهاق المصاحب لحركتنا، والذي أصاب أجسادنا بالكلل والخدر وثقل الوسن، حتى استسلمنا تمامًا لمنغصات النوم، بعد أن تخلل الوسن مرافق الذهن والعين، وأذاب شحوم الطاقة في الجسد.

وفي ظهر اليوم التالي، وصل فوج مشاة من أحد ألوية الفيلق الثاني، ليكون إسنادًا للقاطع، جنبًا إلى جنب مع قوات مغاوير الفيلق الرابع، لتنفيذ مهام الهجوم المنتظر على تلك الروابي التي احتلها العدو، لتحريرها من قبضتهم.

كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهرا حين تجمع يمين وحدتنا فوج المغاوير فيما كان فوج المشاة يهيئ جنوده يسارنا. حينها

كنت قد استلمت مهمة توجيه المدافع نحو أهدافها التي أمست جميعها جاهزة بأمرتي وأمرة آمر رعيلنا الملازم الأول عدنان إلى جانبنا المخابر فنخر فيما رافق المشاة في الهجوم المخابر سبتي مع ضابط من الرعيل الثاني..

بينما كنت منشغلًا في توجيه المدافع الإحدى عشرة، وإعداد القداحين للتهيئة، أخرجت قلمًا من جيبي لأحدد به اتجاهات المدافع والمسافات على خريطة الرمي التربيعية، وأدوّن رقم كل مدفع بدقة. في تلك اللحظة، سقطت من جيبي حافظة شفافة رقيقة من البلاستيك دون أن أنتبه. كانت تحتوي على بعض الدنانير، وصورة رجاء... حبيبتي، التي أهدتني إياها قبل التحاقي الأخير بالجبهة.

لم انتبه على سقوطها، لكن المخابر فنخر، الذي كان يتابعني في اتصالاته اللاسلكية مع الوحدات المرتبطة، لمحها على الأرض. التقطها ونادى عليّ بصوت خافت، كأنه يدرك أن ما في الحافظة أثمن من المال. التفتُّ إليه، فرأيت الحافظة بين أصابعه، تتأرجح كأنها تهمس لي بشيء من بعيد... شيء عن الحياة خارج هذا الضجيج، عن وعدٍ لم يكتمل، وعن قلبٍ ينتظر. فنادى عليَّ:....

- ياسر، سقطت منك حاجة، أحزر ماهيَّ؟

خممت جيوبي فافتقدت الحافظة. فقلت له...

- أين هيَّ؟ هاتها

- وما هيَّ؟
- حافظة صغيرة.
- ما بها؟
- صورة وبعض الدنانير
- من يقول أنها لك أوصفها لي.
- الم تقل انها سقطت منك؟ هاتها..
- أوصفها.

كان متقصدا أن يداهرني، كي يعرف من هيَّ صاحبة الصورة. فقلت له..

- لا تظن ظن السوء، أنها حبيبتي وبمثابة خطيبتي، ولكن أُجِل الموضوع بسبب الحرب. ذكرتني بها في هذه اللحظة، هاتها دعني أراها وأخذ العزم منها، لقد أوحشتني. رغم أني لم أنساها لحظة قط، فهي تعيش معي في هواجسي، ترافقني، أشبه بحمامة ترفرف في مخي وقلبي وأمام عينيَّ، أسمعها تهدل في أذنيَّ برخيم صوتها.
- والله أنها فعلا جميلة تستحق الغزل، كيف اخترتها؟ بين لي ذلك، لم أنا لا أعرف أن أعشق؟ أحيانا أحاسب ظني الخائب، ما يوم توافق ميوله مع ميول رغباتي، كلما أخترت واحدة؛ أشعر بها تنفر مني ولا تميل لميولي.
- حين يخفق قلبك بصدق ستعرف لون العشق، حين تزهر الأهواء في روحانية ذاتك ستتعلم نغم العشق. (حينها مازحته وهو الذي يكبرني سنا).. لا تستعجل يا

ابنـي؛ لازلـت طفـلا.. هـو سـيطرق بابـك دون أذنٍ منـك، ولكـن عليـك أن تمعـن النظـر جيـدا حتـى يتحـرك الـدم الجامد في قلبك.

- صـــدقت يـــا ياســـر، كأنـــك قـــرات أفكـــاري ولمســـت مشـــاعري، حيـــث أنـــي دائمـــا مـــا أكـــون متذبـــذبا فـــي قراراتي.

أخـذت الحافظـة مـن يـد فنخـر، وبـتُّ أمعـن النظـر فـي ضـفاف شـواطئها، وكلـي أمـل أن أقطـف يومًـا تلـك الزهـور الغافيـة علـى ثنايـا حسـنها. تأملـت الهمسـة والبسـمة المارقـة علـى شـفتيها، راجيًـا أن تهفـو بسـحرها علـى شـفتيّ، أن تهمـس لـي بمـا يـوقظ فـيّ الحيـاة من جديد.

كنـت أراهـا فـي هواجسـي المرتاعـة، أتواصـل معهـا سـلكيًا ولاسـلكيًا، عبـر الأثيـر، ومـن خـلال الأطيـاف والأحـلام. أحلـم بلقائهـا دون طـيش، أن أهـيم بحضـنها دون سـفه، أن أرافقهـا علـى ذات المـوج الـذي يغـويني ويغويهـا... آه يـا رب، متـى تنتهـي هـذه الحـرب اللعينـة؟ متـى يحقـق كـل شـاب وشـابة مـرادهم؟ متـى يخفـق قلبـي خفقـة الجنـون، قبـل أن تجنـي الحـرب علـى ذاتـي وتزهـق أحلامي البريئة؟

عـدت إلـى جهـاز التوجيـه، شـاكرًا فنخـر علـى صـنيعه، وإن بـدا غـافلًا عـن أثـره فـي نفسـي. وجهـت جميـع المـدافع إلـى أهـدافها، وأنهيت عملي تمامًا. أصبح كل شيء جاهزًا.

وقفت جانبًا، أتفحص وجوه جنود المغاوير الذين باتوا على استعداد تام لخوض مغامرة الهجوم على الروابي، لاستعادتها من قبضة العدو. وخلال تفرسي في الوجوه، اصطادت مقلتاي عن طريق صدفة نادرة، وجه ابن خالتي حسام الدين... ابن الواحد والعشرين عامًا، والوحيد لأمه على رأس أربعة أخوات. كان ضمن القوة المهاجمة.

مثلما تفاجأت أصابته الدهشة والمفاجأة بوجودي في ساحة القتال، حين إذ ناديته وهو غير منتبه، وقلبي صار يخفق شوقا للقياه..

- حسام.. حسام...

تهللت عيناه فرحا حين سمع ندائي، ملتفتا نحوي، مبتسما وعيناه تكاد لا تصدق حجم الدهشة التي أصابته، فأنسلت من بين الجموع متقدما نحوي، صار يحضنني بغنج في لقطة لن تنسى، لحظة ملئها عاطفة وحنانا ومحبة... تهلل وجهه فرحا، تكاد البسمة لا تسقط عن فغره كما تعودت أن أراها من قبل، فيما شطت عيناه المحمرة بقطرات من الدمع.. رغم هالة الحزن الشفيفة المحيطة بنظرات عينيه، طوقني بذراعيه مثلما طوقته وكأننا نلتقي لآخر مرة.

ابتسم لي بعدما اخترق الصفوف مقبلًا، وكأنه يود أن يفرغ همّه وهمّ القدر الذي أظلّه، في بوتقة حناني. تشابكت الأيادي، قبلته، حضنته، ووقفنا جانبًا لخمس دقائق، جذبنا حديث الأمس، والشوق، والأهل. لم نصدق أن يجمعنا ظرف بليغ في

بقعة منسية من هذا العالم، وفي معركة لم نخطط لها. كانت حالة جانحة، فرضها الواقع علينا، فاقت طاقاتنا وقدراتنا بنتائجها.

كنا في رقعة مبتورة من الأرض، لا تطأها سوى أقدام بنات آوى والذئاب والثعالب. نعم، ستحملنا الذكرى على متنها، سنبتهج بها وتبتهج بنا يومًا ما، حين تلسعنا الذاكرة لتشهد أننا رسمنا جزءًا من تلك الملحمة الكبرى في حياة الأمة. إنها فرصة لا تسنح إلا لمن دحضه الحظ وتعلّق بتلابيبه. لن يحس بها ولن يدرك قيمتها، إلا من خاض النزال، ولعق سمه وعسله. فهي لا تأتي إلا كنيازك، تربك الأرض بوقعها، وتترك أثرًا لا يُمحى.

كان غير مصدق لهول المفاجأة، مثلما هزّتني بوقعها، كذلك اهتزّ بها. كان يرتدي ملابس المغاوير المرقطة، فيما كنت أرتدي اللون الكاكي القريب من لون المشاة، مع بلوزة عسكرية زيتونية اللون، تخص صنف المدفعية.

كان مليئًا بحيوية وعنفوان الشباب كرفاقه الذين تتراوح اعمارهم بين 20 سنة و25 سنة، يصغرني بست سنوات، والوحيد الذي يعيش برفقة أمه. لذا، شعرت في عينيه رجاء صامت أن أعتني بأمه إذا ما حلّ به قدرٌ لا سمح الله. قرأت ذلك في عينيه دون أن ينطق، لمسته في مسحة الحزن الملقاة على وجهه، العابثة في فكره ومخيّخه، في تلك اللحظة الحرجة من حياته، التي لم يسعفه الزمن فيها لبث مناجاته.

لا أدري كيف أوصف ذاك الشعور الغريب الذي اعترانا معا، مثلما كنت أود أن أمنعه من التقدم مع رجال الصولة؛ كنت أود أن أدفع به للأقدام نحو الهدف، لشعوري بأنه يجب أن يسجل أسمه في قائمة أبطال تلك الملحمة، أن يضع صورته في عيون الحدث والذاكرة، كي يزدان أناقة وثقة بنفسه، ويشعر برفعة في الحياة وقيمة في عيون العراق.

حينها انتابتني مشاعر غريبة مختلطة من لتع الخوف والتراجع واغتباط يشد العزم والأقدام، لحظة حرجة لا ينفع بها التفكير ولا الخذلان ولا التردي، لن يأمن أحدنا الأمان ونعم الحياة بالتراجع أبدا، أستشط النشاط بنا جميعا بالثأر لإخواننا من الجيش الشعبي السوداني ولاستعادة أراضينا منهم....

هو كذلك مر بذات الشعور المرهف، ود أن يلتصق بي، أن يبقى إلى جواري أطول مدة ممكنة، مثلما كنت خائفا عليه من شبح الموت كان خائفا عليَّ من ذات المصير، ولكن جاءت اللحظة الحاسمة لنفترق، فلا مجال في إضاعة الوقت والفرصة.

كان ثابتا في قرارة نفسه، لا تهزه عاصفة الخوف، عزمه من عزم رفاقه الليوث... لكن للعاطفة وقع آخر في المواقف المسجرة والمربكة، خاصة أننا لم نلتقي منذ أكثر من ثلاث سنوات.

كنت خائفا عليه من شبح الموت من أن يخطفه من أمه التي هي بحاجة له، كنت أريد أن أسرقه من فم الغول من الوحش

الـذي يجـوب البقـاع، كنـت أود أن يطـول لقائنـا لنتسـمر بسـرد ذكريـات طفولتنـا، وددت أن أسـقيه نشـوة مـن الصـبر وضـحكة مـن الأمـل، أن أرسـم علـى ثغره هـلال بسـمة تنسية مـرارة الشـوط القـادم، حيـث التحـرش بمفاصـل الماضـي يجعـل للـذكريات روح حميمـة، يجعلهـا تنـتفض وتستسـلم لأفكارنـا، تنهـار أمـام رغباتنـا.. مـن خلالهـا يمكننـا حـش الوحشـة الكاتمـة علـى قلوبنـا وفـض صـرة الذاكرة للعبث بزهور ماضينا..

وددت أن نتجـاذب احاديـث الطفولـة، أن نمتـد علـى بسـاط الألفـة والقرابـة بمـا يسـمح بـه الـزمن، ممتنـين للفرصـة التـي جمعتنـا فـي عنـق الأزمـة. حيـث كـان هادئـا بطبعـه كمـا عرفتـه، لـم يتغيـر قيـد أنملـة عمـا شـكلت الوحـدة فـي كيانـه مـن خطـوط حمـراء واضـحة، لذا بقي متمسكا بالسكينة والهدوء في طبعه المعتاد.

لـم يـدم لقاءنـا سـوى دقـائق نفـذت بسـرعه، تماهـت فـي رجـاء الـذكرى، كنسـمة فجـر مـرت فـي خـواطري.. كـان قـد أجـج المشـاعر الراكـدة، ذكرنـي بطيـب السـنين المارقـة، نفـض الغبـرة عـن الأيـام السـالفة، جعلنـي أتلـذذ بمـا حبلـت بـه مـن ألفـة وسـعادة، كانـت ذكريـات عريضـة لا يمكـن تجاهلهـا ونسـيانها فـي لعبنـا وترحالنا على روابي مدينتنا..

يـا لهـا مـن ذكريـات بعيـدة، كنجـوم تـتلألأ فـي سـدم الـذاكرة.. ذكريـات جميلـة حتـى فـي مرارتهـا، قضـيناها معـا فـي كنـف الأهـل، فـي رحـلات استكشـاف الربيـع علـى تلـول جلـولاء نلـتقط الزهـرة والكَمْـأَةَ، وحـين نـركض ونتـدحرج علـى العشـب

الأخضر، نلهو مع الياسمين والجلنار، أو حين نتسلق العيون والأشجار، أشعرني بالحنين لشواطئ أمس وفتن الاسرار، والتي ما عادت تُجْدل مشاعرنا بضفائرها كما كانت في الماضي...

المشاعر المتأججة جعلتني أتبع أهواء الظن بالآهات وشطف الحزن الذي ظلل ينازعني، شحذتْ نفسيتي بجور ومرارة الحسرة على فراقه، وعلى المصير المجهول الذي ينتظرنا ونحن نركب ذات القارب... ربما لن أراه ثانية! إلا في صرة الذاكرة، وتلك طامة كبرى تجعله ملتصق بذاكرتي ما حييت - قد لا يراني! إلا في ظن الرجاء، حيث شجن الفراق مرٌ لا يطاق، يبقى قابعا في الظن أكثر مما له في الوجود من أثر يحن إليه. أنه مأزق خيال ومأزق نفس لا تمار بالوجد والشجن، ذلك الخيال العابث بالروح قد يطول ظله ويتمادى مع الزمن.

بعد أن ناغمت أعيننا دمعة الفراق؛ كان لابد من وداع، شعرت بروحي التي فاضت حنينا رافقته، وهو يلتفت خلفه راجيا أن يسرق من وجهي نظرة أخيرة، نظرة تسعفه على الصبر في مشواره القادم، مضى مع رفاقه، كان يوسطهم، حتى تلاش بين المسافات والمنحنيات وتمويه الملابس المرقطة التي يرتدونها.

ما أن ودعته حتى رقت دمعة في الحدق، أحتار بها الجفن، فانسلتت منحدرة على الخد لتزيد الوجنة شجنا وشحوبا. البقعة الصفراء تقاسمناها، نشفت عليها الابتسامة، نبزت الشفاه

بلونها، ولغت كرقائق صمت تمتم اللسان بها وهو يدعو له ولرفقائه بالسلامة.

ما أنفك حين أبتعد ظل يتلفت خلفه، كأنه بذلك قد أوصاني بأمه الوحيدة العجوز، كأنه قد أطمأن على أمه حين أودع ثقته بي، كما تطمأن بأني سأتبع خبره بعد انتهاء الصولة.

في الحقيقة ما شدني إليه وما شده إليَّ، ليس لأنه أبن خالتي فقط ! أنما طبيعة اللقاء الغريب الذي جمعنا في ظرف غريب وفي مكان غريب وفي زمن عصيب من عمرنا.. كان اللقاء لقاء صمت أكثر من أن يكون لقاء مودة، لقاءً تعجب أكثر من أن يكون لقاء ألفة، لقاء استفسار بحد ذاته، لقاء مصير مشترك، حلم في أعماقه، خيال في شكله، عميق في جوهره، بديع في سحره، أنه واسع بكل ما يحتويه الذهن من تفسير، وعميق في قاموس المواقف والمعاني.

كان اللقاء غريبا، طورا هجينا ولد من رحم المستحيل، استشطت به الأعباء فذرفته في ندرة الحوادث. كان أشبه بالمعجزة، جعلت اليأس يختنق بضفائر الحياة..

من انفلات القدر، من عجز الزمن، بزغ ذلك اللقاء كشهب وسط سدم الظلمة، فبان كعصف تجاوز طاقة الأنسان. موقف أراده الله لنا لنؤازر بعضنا، ليكون حضن لذكرى تجمعنا..

أن تلتقي بقريب أو صديق صدفة في مدينة أو دولة، فذلك من قبيل المصادفة. أما لقائي بحسام وسط معمعة الفوضى التي

كانت تُطبخ على نار القلق، فكان لقاء حلم ومصير، مواجهة لم تُحسم نتائجها بعد، وسط زخم من العواطف الجياشة المشحونة بالألفة والوطنية، وذكريات الأهل والخوف من المجهول.

كان للقاء نكهة غريبة، نكهة التكاتف والتحدي، نكهة المساندة. أن تلتقي بشخص عزيز وقريب في ذات المعركة، قبل بدء الهجوم بنصف ساعة أو ساعة، لهو أمر يشدك نحوه ويضنيك، كما أرهقه وأرهقني. الحياة لا تتجدد بطبيعتها، إنها حياة واحدة لا غير، لكن تتجدد فيها المآثر التي تسطرها الذاكرة. ولقاؤنا منح حياتنا طعمًا غريبًا، مرارة أطيب من العسل.

قد يكون هذا اللقاء الأخير بيننا، لكنه سيترك أثرًا بالغًا في البصمة التي سنضعها على وجه التاريخ في هذه البقعة. سيكون لنا عمق أبدي وواقع حال، إذا ما أراد القدر أن يكون له بصمة، حينها سيحمل معنى اللقاء عمقًا كبيرًا في الذاكرة، حاضرًا في المكان والزمان إلى أمد الدهر. وإلا، فما تفسير ذلك؟

أحسبه جاء يدافع عني ببندقيته قبل أن أحسم دفاعه عن وطنه. جاء يصرف عني الشر، بينما أحاول تجنيبه خبث الشر القابع أمامه بكل ما أملك من قوة. أسند صولته بشراسة المدافع الذي أتحكم بها، كما يحشّ الخطر عني ببندقيته. أرش ميدان المواجهة بشرر الشظايا، أغسل المحيط بدم العدو، أجعلهم أبطالًا في أعين ذواتهم. وقد أحسب العملية كلها تكافلًا حسيًا

وشعوريًا بيننا، وكلفة قرابة وظرفًا زمنيًا متبادلًا، قبل أن تكون واجبًا وطنيًا.

لم أدعه يمضي مع رفاقه في الهجوم دون أن يسرق مشاعري من جسدي، دون أن أكون سندًا قويًا له. حاولت بكل قوة ورباطة جأش أن أحشّ الخطر عن مسار المهاجمين في تقدمهم وهم يتسلقون الرابية، على مساحة عرض تقارب كيلومترًا، مطوقين الواجهة الأمامية من الهضبة الشامخة. في وصلي، تتبعت الغول الرابض في القمة، خلف الموانع الطبيعية والصخور والشجيرات المبثوثة أمام تقدمهم، ليصلوا بسرعة إلى قمة الهدف، مضحين بأرواحهم دفاعًا عنا.

كنت والملازم الأول عدنان قد استلمنا آمرية البطارية للرعائل الثلاثة مجتمعين. وفي لحظات الهجوم، غطّت مشاعري هالة من الحزن والأسى انبعثت من أعماق الذات، لا أستطيع كفّ جماحها أو السيطرة عليها. باتت تلفظ نيران المهج كبركان خلف أرواحهم، خاصة وأنا أشاهد هؤلاء الفتية، الذين معظمهم لم يتأهلوا فعليا، لم يتزوجوا لصغر سنهم، يتوجهون بعزم وثبات وشجاعة منقطعة النظير لمواجهة العدو المتحصن في ملاجئه فوق قمم الروابي، في محاولة دحر من تجاوز علينا واحتل روابينا.

ليست المسألة هينة أن تمضي بقدميك لتدحر من هو متحصن في القمة. قسم من هؤلاء الشبان لم تكتمل لحاهم في وجوههم،

ولـم تخضـهم التجـارب. تـراهم أشـبه بـورود الصـبح المبتهجـة بنور الشمس.

لحظـات مريـرة، كنـت أسـمع فيهـا تـرددات نقـر صـدى المـوت تطـرق رأسـي، أشـبه بطـرق النـاقوس وهـو ينبـئ بوقـوع حـدث جلـل تهتـز لـه المشـاعر. جعلـت خيـوط الـود والمحبـة والأدعيـة والرجـاء تلتـف حـول محـور الحـدث، متعلقـة بأعنـاق وأرواح أولئـك الفتيـة. وجـوه بيضـاء معـدّة للزفـاف، وفـي ذات الوقـت جـاهزة للعبـث مـن قبـل المـاجن المحـيط بهـم. ورود يانعـة تنتظـر استحقاق المصير، لا أن تُباح دماؤها في عزّ شبابها.

كنـت اشـعر بالانـا تتـبعهم ، تحتضـنهم تحـاول ان تجلهـم مـن كربـة الحـزن والخـوف المطبـق علـى قلـوبهم، أنـه وجـل طبيعـي يصـيب كـل إنسـان، لـيس وجـل جـبن أو خنـوع، بـل وجـل وداع وصـحبة وذكريـات وأهـل وحيـاة طويلـة قـد يصـيبها الشـلل. فـي الحقيقـة مـا كنـت أرى للوجـل رسـمة علـى ثنايـا الوجـوه أبـدا، لكنـي كنـت أفترضـها مـن ذات نفسـي خوفـا علـيهم مـن الخطـر، كنـت أرى فـي خيـالي ملامـح لـه خلـف انـاهم، كـأني كنـت أصـطنعه مـن ملـح الخيال دون إرادة مني لحرصي عليهم.

فـي الحقيقـة بمجـرد دخـول المقاتـل فـي سـاحة القتـال يفتقـد شـعوره بمحيطـه والحيـاة، ينصـب همـه وتركيـزه علـى مواجهـة الحـدث أمامـه وتتبـع الشـر المتـربص بـه، الماثـل أمامـه، محـاولا كسـر شـوكة العـدو قبـل أن تسـتفحل قـواه. لـذا تجـده يندفع بفكـره وجنونـه بأقصـى مـا يمكـن لتفعيـل صـولته، وأحيانـا بتهـور واضـح نحـو

رفع راية النصر دون شعور منه. هكذا وجدتهم يركضون باتجاه العدو تحت حماية مظلة اسناد مدافعنا.

هؤلاء الفتية في تقدمهم، اصطفوا انساقا متعددة ومتتالية يفصل بين نسق وآخر مسافة 50 مترا، وكل نسق يتكون من 25 جنديا، والمسافة بين الجندي وزميله عشرون متر، مدججين بأسلحتهم وخوذهم، لا أذكر عدد الانساق ولكنها لا تقل عن خمسة أو ستة. واضعين سلسلة جعب قنابل الرمان وزمزميات المياه في أحزمتهم، وخراطيش القاذفات (آر بي جي 7) محمولة على ظهورهم تحمل قذائف، واضعين الوطن بنصب أعينهم، ثقتهم بالله وبكرامة وعزة العراق فوق كل شيء، متوكلين على الله وعلى بطاريتنا في هزيمة العدو الغاشم.

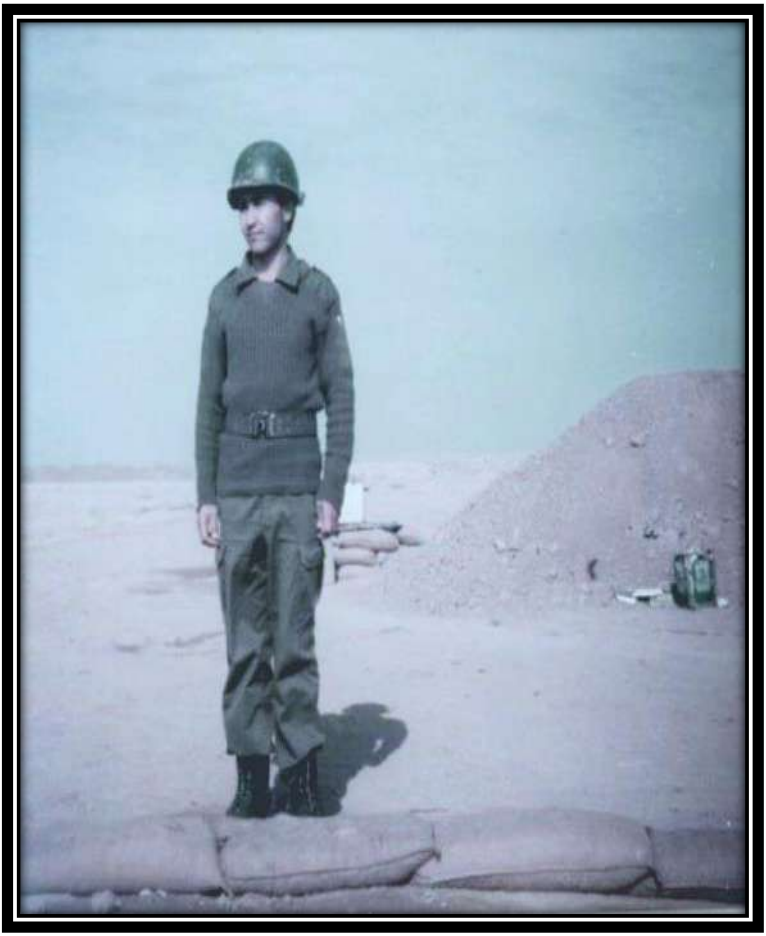

3- معركة السيطرة على القمم

في أول تقدمهم نحو الرابية كانوا بطيئين جدا، وذلك لطبيعة الحالة ولطبيعة الأرض، كيف يمكنهم اقتحام مواضع عدو متحصن ومتربص لهم فوق قمة رابية شاهقة، أنها عملية ليست متكافئة، الصعوبة تكمن في عملية الارتقاء، فالعدو ممكن أن يهزم مهاجميه بقنابل الرمان وهو جالس في موضعه دون أن يكلف نفسه عناء الرمي.. في البداية حاولوا في محاولة منهم التخفي بين المنحنيات والتواءات الأرض وأخاديدها الطبيعية التي تصادفهم كي يشتتوا تركيز العدو عليهم، محيطين التلة من الجهة الأمامية والجهة الغربية في طوق بسلسلة حلقات متتالية من تلك الأنساق، كل حلقة تتكون من خمسين جنديا من البواسل، مقسمين بين جنود مغاوير الفيلق وفوج المشاة.. من خلال تقدمهم أضحت صورة التشكيلة للمراقب تجسد شكل مخروط زاحف نحو القمة، من الجهة الأمامية قوات المغاوير ومن الجهة الغربية قوات المشاة حتى أكتمل المخروط في النهاية بوصولهم القمة.

كنا نرقب تقدمهم بمناظيرنا، وقلوبنا ترفرف بالدعاء مع كل خطوة يخطونها. كانوا واثقين من النصر، شامخين كأنهم خلقوا للبطولة، فيما جنود العدو يترقبون بوجل، يتخبطون بين الخوف والتخمين. إنها المنازلة الكبرى، حيث الكل على أهبة الاستعداد، محصنين بالقمة وبأسلحة البي كي سي، القناصات، قنابل الرمان، وهواوين الستين ملم.

لكن مدافعنا لم تمنحهم فرصة للتفكير أو الانتقام من جنودنا. ما إن بدأت الصولة على الرابية، حتى اشتعلت الجبهة بالنار، وزأرت المدافع كأنها غضب السماء، ترعد وتبرق، تدك القمة بدقة لا تعرف الرحمة. سيل القذائف أربك خططهم، دمر ملاجئهم، وأغرقهم في دوامة من الذهول، حتى عجزوا عن لملمة أشلاء قتلاهم.

كانت معركة خاطفة، سريعة كوميض البرق، لم نمنح العدو لحظة لالتقاط أنفاسه، ولا فرصة للسيطرة على القمم. لم نترك له مجالًا لقنص جنودنا أو للهروب، سلبناه حرية الحركة، وأخرسنا أسلحته قبل أن تزعق في الأفق. مطارقنا كانت تهدم أوكارهم، وتلاحق فلولهم خلف القمة، في السفوح والوديان، حتى صاروا أشلاء تلوكها الغربان.

عند ساعة الصفر، شرع الهجوم بتقدم المغاوير والمشاة، سبقهم قصف مركز من بطاريتنا، طال أوكار العدو فوق الرابية وما حولها. الساعة تشير الى الثالثة مساء، كان التقدم بنسق منظم، يتقدمهم ضابط الراصد الملازم عادل يرافقه المخابر سبتي، تحت إسناد ناري بديع.

كنت على اتصال مباشر بالراصد، كوني مسؤولا عن الرمي، إلى جانب الملازم عدنان آمر الرعيل. هيأت إحدى عشرة مدفعًا، قسمت كل ثلاثة منها لرشقة واحدة، وبين كل رمية

وأخرى فاصل زمني لا يتجاوز خمس دقائق، لإفساح المجال للمهاجمين بالتقدم.

كان الراصد يحثني على زيادة مدى الرمي، حتى رأينا جنودنا يتسابقون ركضًا نحو الرابية، كأننا نشاهد مشهدًا سينمائيًا، مزيجًا من الرهبة والجاذبية وفرحة النصر. قلوبنا أنشدت معهم، تهتف للحق، للوطن، للعدالة التي لا تموت.

اندفعوا بثبات، زاحفين وراكضين، يصوبون بنادقهم نحو القمة، لا تخاذل، لا تراجع، لا خوف. في البداية، كانت الأنساق مرتبة، لكن بعد تجاوز المئتي متر الأولى، اختلطت الخطوط، وتفاوتت المسافات، حسب وعورة الأرض وسرعة الاندفاع.

كثفت القصف، مدفوعًا بعزيمتهم المتقدة، شعرت أنني أتقدم معهم، أن كل منهم ليث في شجاعته. مؤازرتي لهم شجعتهم على المبادرة، على الثبات، على اقتحام الموت دون وجل. هاجت عاطفتي، صارت بركانًا يقذف الحمم فوق رؤوس العدو، ربطت قلبي بخيوط الدعاء والحب والرجاء، مع كل فرد من أولئك الأبطال حرصا على شبابهم.

مع كل طلقة مدفع، كنا ندعو الله أن يحفظهم. استمروا في تقدمهم، حتى تهاوى صرح العدو، وسكتت بنادقه وهواوينه، كأنها لم تكن.

كنا نراقب تقدمهم بمناظيرنا وقلوبنا ترفأ بالدعاء مع خطواتهم، كانوا واثقين من النصر ومن أنفسهم، فيما كانوا جنود العدو يترقبون بتحسب وخوف تقدم قواتنا، أنها المنازلة، الكل مستعد على قدم وساق لاستقبالهم بأسلحتهم الفتاكة **البي كي سي والقناصة، وقنابل الرمان وهواوين 60 ملم**.... لكن مدافعنا لم تفسح لهم فرصة التفكير والانتقام من مقاتلينا، بحيث مع لحظة بدأ الصولة على الرابية أتقدت الجبهة بالنار، انتفضت مدافعنا تزأر وترعد بجنون، صارت تهلهل بالبرق والنار والغضب على رؤوس العدو، مركزة في حوارها على دك القمة بدقة متناهية، بسيل مكثف من القذائف، بحيث أربكت خططهم، دمرت ملاجئهم على رؤوسهم، دلجتهم في سكرة الدوار، فلم يستطيعوا لملمة أشلاء جثثهم ليهربوا بها..

دارت معركة سريعة وخاطفة من قبلنا، بحيث لم ندع العدو أن يتنفس الصعداء. لم نجعله يتمتع بميزة السيطرة على القمم. لم ندعه يتمتع بفرصة قنص جنودنا، أو إتاحة المجال لجنوده التخلي عن القمة والهرب من الميدان. لم ندع له حرية الحركة أو حرية استخدام أسلحته. لم ندع تلك الأسلحة أن تلعلع بزعقها في الأفق، حيث كانت مطارقنا جياشة في هدم أوكارهم على رؤوسهم ومتابعة فلوله خلف القمة من الجهة الخلفية وهم هاربين منها..

مع تقدمهم شرعت المدافع برش الشظايا الغضب على رؤوس جنود العدو بالمهداد والقنابل المنفلقة، وبتحديد دقة الهدف بالدخان للمتقدمين ليروا موقعهم من موقع القذيفة

الساقطة، تهللت وهلهلت المدافع برعود رشقاتها وهي تنهال على رؤوسهم كالصواعق النازلة من السماء. أنزلت غضبها بشدة فوق ملاجئهم المحصنة. قذفتهم بوابل من القنابل التي ما أن حطت عندهم؛ حتى استكانت أسلحتهم، أسكتت أصواتها، أخرست رشاشاتهم وبنادقهم إلا ما ندر.. صار أحدهم يتمنى أن يفر أو يحفر قبره بيديه، أن يدفن نفسه قبل أن يصلوا الاشاوس اليهم، عسى أن يجنب ذاته غل أصوات الانفجارات المرعبة والمتتالية.

القذائف المتفجرة بحضائرهم زعزعت قدراتهم وعزيمتهم على المقاومة، جردتهم من المبادرة، جزلت إمكاناتهم وتأثيرهم من الناحية العملية، سلبت من بين أياديهم المبادرة والأمان في بقائهم في هذا الموضع، زحفت النار إلى القمة. بحيث من تمكن الهرب هرب، ومن بقي قتل في مكانه.. بل صارت القنابل تلاحق الهاربين منهم خلف الروابي وعلى السفوح وفي الوديان لتتركهم اشلاء لأبناء اوى والحوام الجارحة.

كان الضابط عادل على أتصال مباشر بي وقد جرت المعركة على النحو التالي..

- ياسر.. أرمي دخان ----
- حاضر سيدي

فائدة قنابل الدخان هو تقدير وتحديد المسافة بين العدو وسقوط القنابل من جهة، وبين سقوطها والقوة المهاجمة من جهة أخرى، لدرأ الخطر عن المهاجمين.

كنت قد حددت عددا من قنابر الدخان لكل مدفع إضافة لعدد لا يحصى من قنابر المهداد المنفلق.

- مدفع واحد جهز دخان. حاضر سيدي --
- مدفع أثنين الارتفاع --- الاتجاه--- جهز مهداد.
- مدفع واحد: جاهز المدفع للرمي سيدي ---
- أرمِ ---
- مدفع ثلاثة جهز قذيفة انفلاق جوي، مدفع أربعة وخمسة جهز مهداد--- الارتفاع --- والاتجاه ---
- مدفع ثلاثة جاهز سيدي ..
- مدفع أربعة جاهز سيدي..
- مدفع خمسة جاهز سيدي..
- مدفع ثلاثة واربعة وخمسة ارمِ..
- مدفع سته وسبعة وثمانية – جهز مهداد—الارتفاع --- الاتجاه -----
- المدافع جاهزة سيدي..
- أرمِ...
- الضابط الراصد : أرم دخان...
- مدفع واحد جهز – دخان –
- مدفع واحد جاهز سيدي..
- أرمِ..

- ضابط الراصد: ياسر زد من المسافة 150 مترا..
- مدفع تسعة وعشرة و أحدى عشرة -- الارتفاع --- الاتجاه ---- جهز مهداد –
- المدافع جاهزة..
- أرمِ..
- ضابط الراصد – ياسر زد من المدى 100م –
- حاضر سيدي ----
- المدافع جميعا ...الارتفاع(--- ملم) الاتجاه (--- درجة).
- المدافع جاهزة --
- أرمِ

هكذا كان نسق القتال يجري على قدمٍ وساق، في تناغمٍ مذهل بين المدفعية الساندة والمشاة المتقدمة نحو قرص الهدف. لم نمنح العدو فرصة لالتقاط أنفاسه أو استعادة توازنه، إذ بلغ الانسجام ذروته بين المدفع والفكر، وبين القذيفة والهاجس، حتى باتت القذيفة تنطلق على نغمة الصمت، تهفو بالفكر نحو مركز الهدف، ويستجيب المدفع لنبض العقل في اللحظة ذاتها، يرشد القذيفة إلى حيث يختبئ العدو.

غدت الألفة واضحة بين صوت الانفجار وتجمعات الجنود، أينما اتجهوا، تبعتهم النار، تكيد بهم، حتى أُسكتت رشاشاتهم ومدافعهم تمامًا. لم يعد للعدو ملاذٌ أو مأمنٌ سوى الفرار إلى الوديان السحيقة، التي لاحقتهم فيها قذائفنا بلا هوادة.

ذلك التهامس النغام بين الفكر والذات، وصليل المدفع، وعبث القذيفة، وجنون المهاجمين، كان أشبه برقصة غزلية، حيث بإشارةٍ من المخ، تطير القذيفة في الأجواء، تلاحق الفلول المنهزمة في أخاديد الوديان ومنحنياتها. هذا الانسجام ألهم جنودنا البواسل الاستبسال، فشقوا الطريق نحو القمة، يتسابقون لاعتلاء الرابية، ورفع علم العراق عاليًا.

دامت المعركة ساعتين، ارتقى خلالها جنودنا قمم التلول الثلاثة دون مقاومة تُذكر. كانت النتائج مذهلة؛ جثث العدو تناثرت على السفوح، وفي الملاجئ والوديان، بالعشرات. ومن حاول الفرار، تلقفته شظايا القنابر، فتمزق في البقاع الممتدة خلف الرابية، وفي بطون الوديان السحيقة، وشقوقها وأخاديدها. أضحوا وليمةً للحوّام والثعالب وأبناء آوى.

حينها، علت الأهازيج والهلاهيل تملأ السماء فوق الرابية، والجنود يتراقصون رافعين أعلام النصر. وفي قلب الرعيل، ترددت أهزوجة النصر: "يا حوم أتبع لوجرينا".

في تلك اللحظة، جاءني القداح سالم، مسؤول المدفع رقم واحد، يستأذن بإدامة مدفعه لكثرة ما أطلق من قنابر. فأجبته:

– لا بأس، قم بإدامته.

كان الملازم عدنان واقفًا بقربي، وقد انتبه لأوامري، فالتفت نحوي قائلاً...

- كيف يا ياسر تعطي أوامر الإدامة والمعركة لازالت لم تنتهي؟؟؟
- سيدي؛ تحت أيادينا أحدى عشرة مدفع، فإذا عشرة مدافع لا تحمينا، فتأكد بأن الإحدى عشرة مدفع أيضا لا تحمينا..

حينها أثنى علي وعلى قراري بالرضا..

علما المنطقة وعرة جدا من جهة العدو، بحيث لم يستطع أن يجلب معه معدات ثقيلة تسنده كالمدافع أو الدبابات أو عجلات تنقله وتعينه، فالأرض لا توجد فيها طرق معبدة. أعتمد في هجومه على الهواوين المحمولة عيار 60 ملم والأسلحة الخفيفة الرشاشة وال B K C، وتلك التي يمكن نقلها على ظهور الحمير وقسما منها أستولى عليها من الجيش الشعبي السوداني المنكسر، معتمدا على كثرة عددهم.

بعد انتهاء المعركة والتوشح بالنصر المؤزر جاء أمر لواء المشاة وأمر فوج المغاوير يتشكرون من السيد أمر البطارية الملازم الأول عدنان ومني شخصيا (كما قال لي ضابط الراصد – ما قصرت، أحسنت الفعل والاسناد يا بطل) على الأسناد الذي قدمناه لهم، والذين بشهادتهم لم يحظوا بمثله في معارك سابقة قط.

ما شجعني على أن أسند تلك القوة المهاجمة بالشكل المثالي وبرغبة عارمة، هو صور الشباب وهم في أعمار الزهور، في زهو القهم يتقدمون بشجاعة، ليجعلوا صرح الحياة مرفأ سعادة

لنا وربيع دائم لكل أبناء الوطن، ليضمنوا البسمة على الوجوه البريئة وهي تمضي لمدارسها بأمان وعيش كريم.

كانت نتائج المعركة تدمير قوة العدو في هذا القاطع تماما، وبذلك اكتملت عملية النصر في مسلسل معركة تاج المعارك مثلما أطلق عليها تلك التسمية الرئيس صدام حسين....

ارتفعت الأعلام العراقية شامخةً على قمم الروابي الثلاث، معلنةً انتصاراً جديداً يُضاف إلى سجل المجد الوطني. ومن قلب المعركة، انطلقت برقية تهنئة إلى القيادة العامة للقوات المسلحة، تحمل في طياتها بشرى النصر وروح الفداء.

رغم ضراوة المواجهة، لم تتجاوز خسائرنا سبعة من خيرة الجنود بين شهيد وجريح، وهو ثمنٌ عزيز دفعناه لنحفظ للوطن كرامته ونصونه من أطماع المعتدين.

لقد كانت هذه المعركة بمثابة "شذرة العقد" التي أضفت على سلسلة الانتصارات أناقةً وبهاءً، فازدانت بها رقبة الوطن، وتباهى بها العراقيون فخراً وسروراً. تمكّنا خلالها من كسر شوكة العدو، ومنعه من تطوير هجومه أو فرض تقدمه، فبقي عاجزاً عن إيجاد موطئ قدم على أرضنا الطاهرة. أما أولئك الذين كانوا يتطلعون لفك الحصار عن قطعاتهم في قاطع شرق دجلة، فقد خابت آمالهم، وفشلوا في الوصول إلى شارع بغداد لدعم رفاقهم المنهارين في قاطع الهور والمناطق المتاخمة له، كالبيضة والسودة.

وهكـذا، تحـت شـمس النصـر السـاطعة، تـلألأت "شـذرة العقـد" العراقيـة، لتـروي للعـالم قصـة شـعب لا يُهـزم، وجـيش لا ينكسـر. بعـد إعـلان النصـر أنيطـت مسـؤولية حمايـة القـاطع لفـوج المشـاة، فيمـا انسـحبت قـوات المغـاوير والتـي هـي تعتبـر قـوات ضـاربة وسـاندة لجبهـة الفيلـق الرابـع.. ولكـن خـلال انسـحابهم لـم ألتقـي بـأبن خـالتي حسـام، وبقـي الشـك يحـز بنفسـي والقلـق يشـغل ذهنـي، جعلنـي أتنقـل بـين مهـازل الرعـب والخـوف مـن جهـة وبـين سـلامته وعافيتـه مـن جهـة أخـرى، فلـم أتـيقن مـن حقيقـة مصـيره، أن كـان قـد أستشـهد أم لا إلا بعـد أن اسـتمتعت بإجـازتي الدوريـة بعد انتهاء المعركة.

******

رحلة العودة من جبهة النصر

بعـد أسـبوعين مـن انتهـاء المعـارك، كنـا لا نـزال مـرابطين فـي مواقعنـا، بانتظـار تأكيـد القيـادة علـى اسـتقرار الوضـع وعـدم وجـود نوايـا لتجديـد القتـال فـي ذلـك القـاطع. وحـين اسـتتب الأمـر، حصـلت أخيـراً علـى إجـازتي الدوريـة، تلـك التـي تـأخرت عنهـا سـبعة وأربعـين يومـاً كاملـة، بسـبب التهيئـة للمعركـة، ووقائعهـا، ومـا تلاهـا مـن إعـادة تنظـيم القطعـات وتوزيعهـا علـى القواطـع، وسط تغير في الأهداف وتشوش في الرؤية القيادية آنذاك.

كان الشتاء قد أرخى سدوله، والسماء أمطرت صبرها بغزارة، كأنها تغسل الأرض من دنس المعتدين. تحولت الأرض إلى طين وسيول، نروغ خلالها بين جو ماطر وأرض رخوة، حتى تلطخت ملابسي وحذائي، في ظل شحّة ماء الغسل. لم أتمكن من الاستحمام طوال فترة المعركة، إذ لم نثبت في موقع واحد، وصارت ملابسي كأنها خشبت على جسدي، تيبس عليها العرق، وتحولت إلى خشونة تحك جلدي وتولد حزازة في مواضع الإبط وبين الأفخاذ وخلف الرقبة. لم أكن أملك غيرها، والبسطال العسكري غاص في الوحل حتى تخضب بلون الطين، فتماهى لونه، ولم أستطع تنظيفه إلا بقطعة خشب، فبقيت آثار الطين عليه كغرين الأرض، ملتصقة به كالصمغ، تعكس للناظر إهمالاً لا يشبهني.

اتجهت إلى مطاعم علي الغربي بعجلة القصعة، لأصل إلى الشارع الرئيسي الرابط بين بغداد والبصرة، متأملاً أن أجد مركبة قادمة من البصرة تقلّني إلى بغداد. جلست في باحة المطعم، أترقب مركبة تحملني إلى مرأب النهضة في الرصافة، ومن هناك إلى مدينتي. لم يطل انتظاري، حتى ارتقيت إحدى المركبات، ومنها إلى باص صغير متجه إلى مدينتي. جلست بجانب امرأة عجوز برفقة ابنتها الشابة، وقد دفعها الفضول لتسألني عن جبهة القتال:...

- ابني، هل لك أن تطمئنني عن الوضع في الجبهة؟
- اطمئني يا عمّة، لقد دحرنا العدو، مثلما جاء ولّى منهزماً، تاركاً قتلاه بالمئات في أرض المعركة.

- ومن أي قاطع عدت؟
- من قاطع جلات العمارة.
- ابني فاضل... لحد هذه اللحظة لم يعد من الجبهة، أنه على قاطع الفيلق الثالث ضمن الفرقة السادسة...
- أطماني يا عمه، حتما سيعود قريبا أنشاء الله، حيث قواتنا هي التي سيدت المعركة في جميع القواطع..
- الله ينصركم بجاه الرسول المصطفى.
- أمين.

كانت أبنتها تسرق الأنظار وتتمعن بوجهي بين لحظة وأخرى، ولكن رث ملابسي والعطن الذي يكتنف به جسدي جعلني أغض الطرف عنها خجلا، رغم الحسن المبثوث في وجهها والذي بات يفيض في صدري لتقاسيم ثناياه الناعمة....

وما أن وصلت مدينتي، ونزلت من باص الأجرة في النقطة المقابلة لباحة المطاعم على الشارع العام، قبل أن يدلف الباص يمينا متوجها للمرأب. في تلك النقطة وفي لحظة نزولي واجهت انضباطا عسكريا واقفا على جانب الرصيف، يترقب النازلين من الجنود لمحاسبتهم، يتصيد المخالفين من الجنود على قيافتهم العسكرية، ما أن رآني عن بعد حتى أشار لي بالوقوف جانبا ليحاسبني على قذارة ملابسي وشكل بسطالي...

حاسبني هذا الانضباط العسكري على عدم تنظيف حذاء البسطال، على الرغم من أني قد أخبرته بأني قادم من جبهة القتال، من وسط النار ولم أجد ماءً أنظف به الحذاء.... إلا أنه

أبـا أن يتركنـي إلا واقفـا فـي محلـي كمسـمار ثابـت، لـم يبـالي بوضـعي التعـب، كأنـه لـم يصـدق أقـوالي، حتـى جعـل الشـرر يتطاير من عيني، والغضب يعتلي ملامح وجهي.

جعلنـي أقـف فـي مكـاني بحـدود ربـع سـاعة قبـل أن يسـمح لـي بالمغـادرة، كنـت منهكـا فـي فكـري وجسـدي... حينهـا جادلتـه إذ قلت له:.....

- جئـت مـن قـاطع جـلات لحـد هـذا المكـان لـم يحاسـبني أحـد، وحـين أصـل علـى بعـد خطـوات مـن البيـت تـأتي لتحاسـبني؟ ألا تقـدر نفسـيتي المتعبـة؟ إلا تـرى الملابـس متخشبة على جسدي...
- حينها قال لي أذهب لكن عليك أن تجعل حذائك نظيفا.

فـي تلـك اللحظـة، كنـت أود أن أفـرّ مـن قبضـة التـأخير وملـل الانتظـار، بعـد عنـاء رحلـة طويلـة تجـاوزت 300 كيلـومتر. كنـت خلالهـا أستنشـق رائحـة التعـب المنبعثـة مـن جسـدي وملابسـي، أشـعر بالخجـل مـن أن أجلـس قـرب شـخص أنيـق المظهـر، نظيـف الثياب.

لكـن بعـد أن أُطلـق سـراحي وسُـمح لـي بالرحيـل، تأملـت هيئتـي جيـدًا، وعرفـت حينهـا أيـن تكمـن قـوة الجـيش العراقـي. ذلـك الانضـباط الصـارم كشـف لـي سـر القـوة: إنـه كـامن فـي ذات الإنسـان، فـي الالتـزام والانضـباط العسـكري. هـذا السـر هـو مفتـاح النصـر، قـوة كامنـة فـي الـنفس، قـادرة علـى تطويـع الظـروف إن أُحسـن توجيههـا. فالنصـر، ذو الأبـراج العاليـة، يشـع نجمـه

بخطوات إيمانية مرسومة في نظرات العين وسلوك الذات الأبية. أما المجسم الذي يحمل خدشًا في تكوينه، فلا يصلح للمقارنة، ويغدو باهتًا، غير مرغوب فيه.

هكذا كان للالتزام أثره في ضبط العسكر، فلم تُراعَ توسلاتي حين خالفت قواعد القيافة العسكرية. كان عليّ أن أضبط هندامي، ليحمل اللباس هيبة وقيمة في أعين الآخرين، وتحفظ للعسكرية وقارها في عين المراقب وفكر المتأمل.

عند دخولي البيت، تهلل وجه أمي فرحًا، بعد أن كان موشحًا بسواد الحزن طوال فترة غيابي. هلهلت بصوتها الشجي، احتضنتني، قبلتني، وقالت والدمع يملأ عينيها:

"لقد فقدت الأمل في عودتك."

ثم انهمرت دموعها الغالية على خديها، بللت وجنتيها وفوطتها السوداء، تلك التي لا تفارق رأسها، وتثبتها بدبوس في فودها، لثقل نوعيتها. كانت دائمًا ترتدي فوطة سوداء من الإبريسم اللامع. أتحفتني بدموعها، بعاطفتها، بلسانها الشجي.

شعرت حينها أنني أزحت عن كاهلها ثقل الزمن، كما أعدت البسمة إلى وجه أبي، الذي عاد من السوق محمّلًا بعلاقة نايلون من الخضار والفواكه. احتضنني وهنأني على سلامة الرجوع من فك الموت. كان يجلس إلى جانب أمي أخي الكبير، الذي احتضنني هو الآخر بشوق، ماسحًا دموعه عن وجنتيه..رحمهم الله جميعًا، وأسكنهم فسيح جناته.

سألت حينها عن ابن خالتي حسام، وشرحت لهم الواقعة التي اشتركنا بها. لم يسمعوا عنه خبرًا، فاشتد خوفي عليه. لكن بعد يومين من وصولي، التقيت به، إذ وصل إلى مدينتنا جلولاء في اليوم التالي من عودتي.

النهاية:

حين أُسدل الستار على الحكاية، لا تنتهي الأسئلة، بل تبدأ. فـ"شذرة العقد" لا تمنحك إجابات جاهزة، بل تتركك في مواجهة ذاتك، تتأمل ما قرأت كما لو كنت تنظر في مرآة صافية. في النهاية، يدرك القارئ أن القوة ليست في الحدث، بل في الفكرة، وأن النصر الحقيقي هو انتصار الإنسان على هشاشته، حين يكتشف أن الانضباط، الحب، والوعي، هي مفاتيح النجاة في عالم متقلب. هكذا تنتهي الرواية، لا بانطفاء، بل بتوهج داخلي، يرافق القارئ طويلًا بعد أن يطوي الصفحة الأخيرة.

أنتهت

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1. فرصة هدف
2. عصير الرمان
3. لغة العود والحجر
4. زيارة طبيب
5. كرستال
6. الانتقام
7. صياد النساء
8. المجموعة الكاملة الجزء الأول
9. المجموعة الكاملة الجزء الثاني

مجموعة الروايات:-

1- عطر خلف الستار
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- فواصل الشوق
12- حين اتقدت الرأفة
13- الرؤيا

غدت الألفة واضحة بين صوت الانفجار وتجمعات الجنود، أينما اتجهوا، تبعتهم النار، تكيد بهم، حتى أُسكتت رشاشاتهم ومدافعهم تمامًا. لم يعد للعدو ملاذٌ أو مأمنٌ سوى الفرار إلى الوديان السحيقة، التي لاحقتهم فيها قذائفنا بلا هوادة.

ذلك التهامس النغام بين الفكر والذات، وصليل المدفع، وعبث القذيفة، وجنون المهاجمين، كان أشبه برقصة غزلية، حيث بإشارةٍ من المخ، تطير القذيفة في الأجواء، تلاحق الفلول المنهزمة في أخاديد الوديان ومنحنياتها. هذا الانسجام ألهم جنودنا البواسل الاستبسال، فشقوا الطريق نحو القمة، يتسابقون لاعتلاء الرابية، ورفع علم العراق عاليًا..